حاجة البشرية
إلى محمد صلى الله عليه وسلم

إعداد

حسام العيسوي إبراهيم

إهداء

إلى حبيبنا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم، ندعو الله عزوجل أن يكون شفعينا يوم القيامة، وأن يسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً، وأن يكون رفيقنا في الجنة.

اللهم آمين

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

فإن البشرية الآن تحتاج إلى النبي صلى الله عليه وسلم، تحتاج إلى تعاليمه الراشدة، وأخلاقه الفاضلة، فلا يخفى ما وصلت إليه البشرية الآن من حالة الشقاء والضياع في كل مجالات الحياة، وهذه الحالة التي تماثل ما كانت عليه البشرية قبل بعثته صلى الله عليه وسلم.

تحتاج البشرية إلى قيم الإسلام، وإلى تعاليمه، وإلى منهاجه، تحتاج البشرية إلى غرس محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الغرس الذي غيّر به النبي صلى الله عليه وسلم شكل العالم، وحوله إلى عالم آخر يقوم على الحب والسلام والأخلاق الراقية، ما أحوجنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم !

هذا البحث هو بيان لحاجة العالم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وتعاليمه، ومنهجه، وقد قسمت هذا البحث إلى فصول وتحدثت فيها عن:

- البشرية قبل بعثته ضياع وهلاك وشقاء.
- شمس محمد صلى الله عليه وسلم تسطع على العالم.
- ما أشبه اليوم بالأمس والليلة بالبارحة.
- تعاليم خالدة وأدوية ناجعة.
- محمد في الفكر الغربي الحديث.
- رسالة إلى ورثة الأنبياء وصناع الحياة.

وأدعو الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يرزقنا العلم النافع، والاقتداء الصادق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

الفقير إلى عفو ربه

حسام العيسوي إبراهيم

إمام وخطيب ومدرس

الفصل الأول

البشرية قبل بعثته ضياع وهلاك وشقاء

العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم

بعث محمد صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً، فإذا كل شيء فيه في غير محله، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر، ومنه ما تكدس وتكوم.

نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل مالا يملك لنفسه النفع والضر.

رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته، فلم تعد تسيغ البدهيات، وتعقل الجليات، وفسد نظام فكره، فإذا النظري عنده بدهي وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك، وفسد ذوقه فصار يستحلي المر ويستطيب الخبيث، ويستمرئ الوخيم، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم، ولا يحب الصديق الناصح.

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح الذئب فيه راعياً والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظيا، والصالح محروماً شقياً ولا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ولا أعرف من المنكر. ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك.

رأى معاقر الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهامة. ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد.

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً. ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة، لم ينتفع بها و لم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالاً على أصحابها وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والجود تبذيراً وإسرافاً، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء شطارة وخديعة، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات، والإبداع في إرضاء الشهوات.

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق، ينتفع بها في هيكل الحضارة، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة.

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه[1].

هذه نظرة إجماليه وصفية للعالم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يمنعنا من عرض جوانب الهلاك والضياع في كل مظاهر الحياة.

1 – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص77،78.

القوى العالمية والحضارات قبل بعثته صلى الله عليه وسلم

حضارة اليونان:

و رغم ما وصلت إليه حضارة اليونان في مجالات الفلسفة والفكر، وما وصلت إليه من نبوغ عقلي لم تجاريهم فيه أمة قبلهم، إلا أن هذه الحضارة أخذت في الانحدار التدريجي، وإن مظاهر هذا الانحدار لتتضح حين نطَّلِع على بعض ما خَلَّفه عباقرة اليونان في أوج حضارتهم.

فهناك نظرية أفلاطون في المدينة الفاضلة؛ فهو يرى أن تتكون المدينة الفاضلة من الفلاسفة، ومن طبقة الجند، ومن طبقة ثالثة هي طبقة العمال والزُّرَّاع، ويكون الحكم للفلاسفة وحدهم وليس للطبقتين الأخيرتين دخل فيه، أما الطبقة الثانية- وهي طبقة الجند- فقد وضع أفلاطون لها نظاماً صارماً، يُزِيل به شخصية الفرد تماماً، فليس لأفراد الجيش الحقُّ في الملكية، وليس لهم حق في تكوين أسرة؛ فلا زوجات لهم ولا أولاد، وإنما تكون المرأة حظًّا شائعاً بين الجنود جميعاً، وأبناء هؤلاء النساء لا يعرفون آباءهم فهم أبناء الدولة، أما الطبقة الثالثة وهي -طبقة العمال والزراع- فعليهم في هذه المدينة الفاضلة أن يكدحوا لخدمة طبقة الحكام وطبقة الجيش، وليس لهم حقوق على الإطلاق، وليس للمرضى في مدينة أفلاطون مكان، بل تنبذهم الدولة بعيداً، وتلك هي صورة المدينة الفاضلة عند أفلاطون[2]!

حضارة الهند:

قامت حضارة الهند في الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد كان لها باع طويل في مسيرة الإنسانية، حيث ابتكروا -على الأغلب- الأرقام التسعة، وكان لهم فضل في علم المثلثات؛ حيث استعملوا نصف الوتر، وحصلوا على جدول من الجيوب، كما عرفوا كذلك الطب والرياضيات والفلك[3].

2 - أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية 54/1، نقلاً عن كتاب ماذا قدم المسلمون للعالم ص19.

3 - انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة 238/3، نقلاً عن كتاب ماذا قدم المسلمون للعالم ص21.

ورغم ما وصلت إليه حضارة الهند من ازدهار ومجد، إلا أنها بدأت في القرن السادس الميلادي تخطو خطوات سريعة نحو الانحدار والاضمحلال في كل شيء، وبالأخص في النواحي الدينية والخلقية والاجتماعية، وكان لذلك عوامل وأسباب عديده[4].

يصور ذلك أبو الحسن الندوي[5]- وكيل ندوة علماء الهند- حين يقول عن حضارة الهند في القرن السادس الميلادي: اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخ الهند على أن أحطَّ أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً، ذلك العهد الذي يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادي. وبعدما صور الندوي فساد العقيدة عندهم قال: ظهر في الهند نظام الطبقات في أبشع صوره، لم يُعْرَف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشدَّ استهانة بشرف الإنسان منه.

أما عن منزلة المرأة في المجتمع الهندي فكانت كالإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أَمَةَ بيت زوجها المتوفَّى وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها، على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا![6].

حضارة الفرس:

أقام الفرس إمبراطورية واسعة الأرجاء، وحضارة راسخة البنايات، شاطرت الروم في حكم العالم المتمدِّن، وقد ازدهرت حضارتهم في زمن الدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث قبل

---

4 - راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم ص21.

5- أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص48.

6 - المرجع السابق ص53.

الميلاد، وبرزت في السياسة والإدارة والحروب ومظاهر الترف والرفاهية، وكان لهم دين رسمي هو الدين الزرادشتي، ولغة ذات آداب وحكمة هي اللغة الفهلوية[7].

هذا، وقد ادَّعى الأكاسرة ملوك فارس أن دماً إلهياً يجري في عروقهم، وأن في طبيعتهم عناصر علوية مقدسة، وصدَّق الفرس هذه الدعوى، فأنزلوهم منزلة الآلهة، وقدموا لهم القرابين، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ويجْبُوا الخراج، ولا ينافسهم إلا دَعِيٌّ نذل؛ فكانوا يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك، لا يبغون به بدلاً، ولا يريدون عنه محيصاً[8].

وقد كانت ثمة هُوة واسعة بين طبقات المجتمع الإيراني، يقول البروفسور أرثمرسين مؤلف تاريخ (إيران في عهد الساسانيين): " كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحِرَف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدود في المجتمع[9]".

حضارة الروم:

---

7 – أبوزيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص67، نقلاً عن ماذا قدم المسلمون للعالم ص23.

8 – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص42،43.

9 – إيران في عهد الساسانين من ص 420 إلى ص 590، نقلاً عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص43،44.

تُعَدُّ الحضارة الرومانية من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة الإغريقية اليونانية، وقد عَرَفت هذه الحضارة نُظُماً إدارية ومدنية جديدة على البشرية؛ فمن ذلك القانون الذي وضعته، والذي يكشف لنا عن مدى ما توصَّل إليه مفكروهم وفلاسفتهم من عِلم وخبرة، ونجد في (قانون الأحوال الشخصية) لديهم تصوُّرهم لطبيعة عَلاقة الفرد بالمجتمع، وما له من حقوق وما عليه من واجبات[10].

ورغم ما وصلت إليه من حضارة ومدنية، وما بلغته من قوَّة وصلت إلى اقتسامها حكم العالم المتمدِّن مع الفرس، إلا أنها قبل البعثة النبوية كانت قد وصلت إلى الهاوية، واتجهت إلى أحطِّ دَرَجات الفساد في كل النواحي الحضارية.

ويلخص الدكتور أحمد شلبي وضع حضارة الروم فيقول: زحف الرومان فاستوْلَوْا على أوروبا خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، ثم استولو على سوريا سنة(65ق.م)، وبعدها استولوا على مصر سنة(30ق.م)، وبهذا خضعت أهم مناطق الحضارات في أوروبا وفي الشرق إلى روما، ولاقت هذه المناطق تحت الحكم الروماني صوراً من الضغط والإذلال قضت على قوة الابتكار والفكر، فخبَت شعلة التطور تحت نير[11] الظلم الروماني، ولم تستطع روما أن تحمل مشعل الحضارة للمناطق التي خضعت لها؛ لأن روما لم تكن في أي عصر من عصورها مركزاً من مراكز الفكر كما كانت عين شمس في مصر القديمة، أو أثينا والإسكندرية في عصر ازدهار الحضارة اليونانية، وتوقف بذلك نشاط الحضارات[12].

ورغم ظهور المسيح عليه السلام إلا أن نظام الحكم الروماني ظلَّ وثنياً فترة طويلة حتى عهد قسطنطين(272-337م)، الذي حكم من سنة(306م) إلى سنة(337م)، وقد قام هذا الإمبراطور بسلسلة من الأعمال شدَّ بها أزر المسيحية، ثم دخل المسيحية في أواخر أيامه، وعُمِّد

10 - ماذا قدم المسلمون للعالم ص27.

11 - النير: الخشبة المعترضة فوق عنق الثور لجر المحراث وهي كناية عن الرضوخ الذي لا فكاك منه..

12 - أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية 56/1، نقلاً عن كتاب ماذا قدم المسلمون للعالم ص 27.

وهو على فراش الموت، ولم يكتفِ رجال الكنيسة من قسطنطين بما قدم للمسيحية، بل وضعوا باسمه ما سُمِّي(منحة قسطنطين)، وهي وثيقة تعلن أن الإمبراطور منح البابا سلطات دنيوية كبيره في الولايات البابوية التي أنشأها البابا- ولقد أثبت النقاد زيف هذه الوثيقة بأساليب نقدية دقيقية- والمهم أن موقف قسطنطين من المسيحية جعل رجال الدين يطمعون في مزيد من السلطة التي تتجاوز أمور الدين إلى أمور الدنيا، وقد نجح رجال الكنيسة في ذلك، وفي أواخر القرن الرابع استطاع أسقف ميلانو أن يعارض بعض قرارات الإمبراطور تيودوسيوس الذي توفي سنة(395م) حتى أرغمه على سحبها[13].

ومنذ مطلع القرن الخامس هيمنت الكنيسة على كثير من الشئون وفي مقدمتها الاتجاهات الفكرية في الإمبراطورية الرومانية؛ تلك الاتجاهات التي كانت مصرية الجذور أو فينيقية الأعراق.

ومن الناحية الاجتماعية فقد تألف المجتمع الروماني من سادة وعبيد، وكان للسادة كافة الحقوق، أما العبيد فلم تكن لهم حقوق مدنية على الإطلاق.

أما وضع المرأة في المجتمع فقد قرر مجمع كبير بحث في شئونها فاعتبرها كائناً لا نَفْس له، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية، وأنها رجس، ويجب ألا تأكل اللحم وألا تضحك، ومنعوها من الكلام، حتى وضعوا على فمها قُفْلاً من الحديد[14].

ونتيجة لذلك بدأ نجم حضارة الروم يأذن بالأفول، حتى ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، يُصَوِّر ذلك جيبون فيقول:" وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في تردِّيها وهبوطها إلى آخر نقطة"[15].

---

13 - المرجع السابق.

14 - أحمد شلبي: مقارنة الأديان 188/2، وعفيف طياره: روح الدين الإسلامي ص 271، نقلاً عن ماذا قدم المسلمون للعالم ص31.

أهل الكتاب قبل الإسلام

اليهودية:

أصبحت اليهودية مجموعة من الطقوس والتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وتأثرت بعقائد الأمم التي جاورتها واحتكت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها فأخذت كثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود[16] فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: " إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان يدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية، أن التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود"[17].

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل وسخف العقول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق والتلاعب بالدين والعقل[18].

لمحة من القرآن الكريم:

قال تعالى:{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا

---

15 - THE HISTORY OF DECLIN AND FALL OF ROMAN EMPIRE V.Y.P.13 نقلاً عن: أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 35.

16 – انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي(ص20)، نقلاً عن السيرة النبوية: على محمد الصلابي ص14.

17 – المرجع السابق.

18 – المرجع السابق.

اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90 } [البقرة] .

يتحدث القرآن الكريم عن طبيعة اليهود(الطبيعة الكنود)، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً.. وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفيء، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس.. وهذا الشر كله من تلك الأثرة البغيضة:" بغياً.. أن يترل الله من فضله على من يشاء من عباده"[19]

المسيحية:

فقد امتحنت المسيحية بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة[20]، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى، فقد جاء في تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر:

" لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالاً، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، و لم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء،

19 - سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم 90/1.

20 - انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي(ص20)، نقلاً عن السيرة النبوية: على محمد الصلابي ص14.

وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقاً وسيطاً بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام 400ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح"[21] .

وجاء في دائرة المعارف الكاثولكية الجديدة: " تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مُسَلَّمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي "[22]

لقد اندلعت الحروب بين النصارى وكفَّر بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية[23].

21 - انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي(ص23)، نقلاً عن السيرة النبوية: على محمد الصلابي ص15.

22 - دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة، مقال التثليث(395/14)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص 15.

23 - انظر: فتح العرب لمصر، تعريب محمد أبوحديد(ص37،38،48)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص15.

العرب حين البعثة

كان أهل مكة ضعاف التفكير أقوياء الشهوات:

إذ لا صلة بين نضج الفكر ونضج الغريزة، ولا بين تخلف الجماعات من الناحية العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع.

إن عرام الشهوات الذي نسمع عنه في"باريس" و"هوليود" لا يزيد كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفاسد الإنسان على ظهر الأرض.

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا في زيادة وسائل الإغراء فحسب.

أما الشهوات نفسها فهي من قبل الطوفان وما بعده.. الأثرة والجشع والرياء والتهارش والحقد، وغير ذلك من ذميم الخصال، ملأت الدنيا من قديم، وإن تغيرت الأزياء التي تظهر بها على مر العصور.

وإن الإنسان ليرى في القرية التافهة، وفي القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور بما يراه في أرقى البيئات. وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من العلم والفضل، ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس [24].

وقد كانت "مكة" على عهد البعثة تموج بحركات عاصفة من الشهوات والمآثم، وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء، وشلل الأفكار، أو نماؤها في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده.

كفر بالله واليوم الآخر، إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه، رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة، عصبيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك، تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي داخل هذا النطاق المحدود.

---

24 - الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة ص23.

من الخطأ أن تحسب "مكة" يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق. كلا، إنما شبعت حتى بطرت، وتنازعت الكبرياء حتى تطاحنت عليها، وكثر فيها من تغلغل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجه منه. فهم بين عَمٍ عن الصواب أو جاحد له، وفي هذا المجتمع الذي لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مداه، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطغواه!

قال عمرو بن هشام- معللاً كفره برسالة محمد صلى الله عليه وسلم-: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نؤمن به، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً![25]

كانت المرأة في الجاهلية قبل الإسلام ليس لها حقوق وكان الجميع ينظرون إليها نظرة احتقار وذل وعار.

لم يكن للمرأة حق الميراث ولا حق التصرف بأموالها ولا حق التملك والرأي (كانت منتزعة الحقوق).

وكانت بعض قبائل العرب تشعر بالغم إذا بشروا بالأنثى وبعضهم كان يؤدها عند ولادتها زعما بأنها تجلب الفقر والذل والعار لحاجتهم للرجال أكثر من النساء نظرا لكثرة الحروب في الجاهلية[26].

---

25 - المرجع السابق.

26 - حسام العيسوي: الحقوق السياسية للمرأة في ظل الشريعة الإسلامية ص5.

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

رغم هذا الجو الكئيب، وهذا الظلام الحالك وجد بصيص من الأمل، لعودة البشرية إلى ربها، ووجدت بعض مكارم الأخلاق؛ والتي جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليتممها، فقد كانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام ومن تلك الخصال والسمات:

الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية واليونانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة؛ ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة[27].

الكرم والسخاء:

كان هذا الخلق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال[28].

أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

وأشهر مثالاً على ذلك حلف الفضول، فقد قال ابن الأثير:

---

27 - انظر: السيرة للندوي ص12، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص 32.

28 - انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة(95/1)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص32.

" ... ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف، فتحالفوا في دار "عبدالله بن جدعان" لشرفه وسنه، وكانوا بني هاشم، وبني المطلب، وبني أسد بن عبدالعزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترَدَّ مظلمته.

فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، فشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال- حين أرسله الله تعالى-: " لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، لو دعيت به في الإسلام لأجبيت"[29].

عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل:

ويظهر ذلك من خلال أشعارهم، فقد جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: واذلاه يالتغلب.. فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرواق فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا ما في الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلاً:

---

29 - رواه ابن اسحاق في السيرة كما في ابن هشام(92/1 من الطبعة الجمالية). قال ابن زيد بن المهاجر قنفذ التيمي أنه سمع طلحه بن عبدالله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذكره، قلت: هذا سند صحيح لولا إنه مرسل، ولكنه له شواهد تقويه، فرواه الحميدي بإسناد آخر مرسلاً أيضاً كما في "البداية" (29/2) وأخرجه أحمد(رقم 1655،1676) من حديث عبدالرحمن بن عوف مرفوعاً دون قوله "ولو دعيت به في الإسلام لأجبت" وسنده صحيح، نقلاً عن فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي.

بأي مشيئة عمرو بن هند   نكون لِقَيْلِكم[30] فيها قطينا[31]

بأي مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

تهددنا وتوعدنا رويداً   متى كنا لأمك مَقْتَوينا[32]

إذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نقر الذل فينا[33]

الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:[34]

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام.

ويدل على أنفتهم للكذب قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الحروب بينهم قائمة قال:" لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه"[35].

الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:[36]

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البِطْنَةَ تُذْهِب الفِطْنَة، ويَعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

---

30 - القيل: هو الملك دون الملك الأعظم.

31 - القطين: الخدم.

32 - مقتوينا: خدمة الملوك.

33 - انظر: شرح المعلقات للحسين الزوزني (ص196،204)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص33.

34 - الصلابي: السيرة النبوية ص34.

35 - صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي رقم(7).

36 - الصلابي: السيرة النبوية ص34،35.

إذا مُدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشَعُ القوم أَعْجَلُ[37]

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده[38].

قوة البدن وعظمة النفس والعفو عند المقدرة وحماية الجار[39]:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم الإسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، ويأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة لى العرض قال شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وكان إذا استجار بهم أحد أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق

37 - بلوغ الأرب (377/1)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص35.

38 - انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة(96/1،97)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص35.

39 - السيرة النبوية: الصلابي ص35.

الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض ، وملأوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جَوْراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيراً بعد أن طفحت شراً[40].

40 - انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة(97/1)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص35.

الفصل الثاني

شمس محمد صلى الله عليه وسلم تسطع على العالم

جهاد الدعوة

بعد أن طوفنا على العالم قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم، يتضح لنا الجهد الكبير الذي بذله النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليظهر هذا الدين على العالمين، ولتكون كلمة الله هي العليا، وهذه صور من جهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة:

إلام يدعو الناس؟

شرع محمد صلى الله عليه وسلم يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ بهذا الدين الذي أرسله الله به.

وسور القرآن الذي نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونماءها، وأول ذلك:

1- الوحدانية المطلقة:

فالإنسان ليس عبداً لكائن في الأرض أو عنصر في السماء، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله، يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه، وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء. ومن حق كل امرىء أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر؛ كبر أو صغر. وحق على كل امرىء أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى، وأن يتزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ما سوى ذلك، ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة.

ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبنى بها البيوت أو تُرصف بها الطرق، وأن البشر الذين أُلِّهوا في ديانات أخرى صححت أوضاعهم،

فعُرّفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم، يتقدمون عنده بالطاعة ويتأخرون بالمعصية ولا شأن لهم في خلق أو رزق[41].

2- الدار الآخرة:

فهناك يوم لا شك في قدومه، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى.

{فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره(7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره(8)} [الزلزلة].

فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون، وإما جحيم مشئومة، يشقى فيه الأشرار ويكتئبون..

والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام. فكما أن راكب القطار موقن بأنه سيترل في محط قادم؛ فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به ستقف-حتماً- لترده إلى مولاه، حيث يلقى جزاء العمر، ويجني ما غرست يداه..[42]

3- تزكية النفس:

وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عزوجل، وترك أمور أخرى حذراً من مغبتها:

{قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون(151) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون(152) وأن هذا

---

41 - الشيخ/ محمد الغزالي: فقه السيرة ص84.

42 - المرجع السابق.

صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون(153)} [الأنعام]

قال أكثم بن صيفي: " إن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً " .[43]

4- حفظ كيان الجماعة المسلمة:

وذلك باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون وذلك يقتضي نصر المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف. وفي سورة "المدثر-وهي أول سورة أمر الرسول فيها بالبلاغ- نقرأ قول الله تبارك وتعالى:{كل نفس بما كسبت رهينة(38) إلا أصحاب اليمين(39) في جنات يتساءلون(40) عن المجرمين(41) ما سلككم في سقر(42) قالوا لم نك من المصلين(43) و لم نك نطعم المسكين(44) وكنا نخوض مع الخائضين(45) وكنا نكذب بيوم الدين(46) حتى أتانا اليقين(47) فما تنفعهم شفاعة الشافعين(48)} [المدثر].

وكان أبوبكر لا يرى مستضعفاً يُعذب من المسلمين، إلا بذل جهده وماله في سبيل فك إساره وإنقاذ ما به، وذلك حق الفرد على الجماعة[44].

43 - المرجع السابق.

44 - المرجع السابق.

الرعيل الأول

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأفئدة الكبيره، فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد، وكانت آيات القرآن تترل على القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما يترل الوابل على التربة الخصبة.

{فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} [الحج:5].

كان أصحاب العقائد يتجمعون- في تؤده – حول عقائدهم، ويلتفون- في حب وإعجاب- حول إمامهم، ويشرحون- في حذر- أصول فكرهم.

والإيمان قوة ساحرة، إذا استمسكت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكناً.

ولقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتقون عند فكرة من الفِكَر، ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة. ومع أنها فكرة مادية بحته؛ إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها، ويتحملون أقبح الأذى في سبيل نصرتها.

وفي السجون-الآن- رجال تخرجوا من جامعات الغرب، يقضون شطراً من أعمارهم مع القتلة ورجال المخدرات..! ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفعها إلى الأمام. فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السماوات والأرض، وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله، الحدائق الغناء، والقصور الزهر، من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم؟..

إن الرعيل الأول يتكون ويتزايد على الأيام.

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم- أولاً – الإسلام على ألصق الناس به من آل بيته وأصدقائه. وهؤلاء لم تخالطهم ريبة قط في عظمة محمد صلى الله عليه وسلم، وجلال نفسه وصدق خبره، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه.

آمنت به زوجته"خديجة" ومولاه"زيد بن ثابت" وابن عمه" علي بن أبي طالب" – وكان صبياً يحيا في كفالة الرسول صلى الله عليه وسلم- وصديقه الحميم أبوبكر، ثم نشط أبوبكر في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقته ومودته: عثمان بن عفان، وطلحه بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص. وآمن القس ورقة بن نوفل. وقد روى [45]أن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه في المنام- بعد مماته- في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله. وأسلم الزبير بن العوام، وأبوذر الغفاري وعمر بن عنبسة، وسعيد بن العاص، وفشا الإسلام في مكة بين من نوَّر الله قلوبهم؛ مع أن الإعلام به كان يقع في استخفاء، ودون مظاهرة من التحمس المكشوف أو التحدي السافر..

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً. ولعلها حسبت محمداً عليه الصلاة والسلام أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كما صنع أمية بن الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل وأشباههم؛ إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره، وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته.

واستمر هذا الطور السري للدعوات ثلاث سنين، ثم نزل الوحي يُكلِّف الرسول صلى الله عليه وسلم بمعالنة قومه ومجابهة باطلهم، ومهاجمة أصنامهم جهاراً[46].

45 – هذا حديث حسن فتصديره بصيغة(روي) غير حسن، لأنه يشير إلى تضعيفه وليس بضعيف فقد جاء من طريقين حسنهما الحافظ بن كثير في البداية: (3/0) أخرج أحدهما أحمد من حديث عائشة، والآخر أبو يعلى من حديث جابر، فلا أقل من كون الحديث حسناً من مجموع الطريقين، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين " أخرجه البزار والحاكم(2/409) وابن عساكر من حديث عائشة أيضاً، وقال الحاكم " صحيح على شرط الشيخين " ووافقه الذهبي: " وهو كما قالا "، وقال ابن كثير: " واسناده جيد ".

46 – ش/محمد الغزالي: فقه السيرة ص86،87.

إظهار الدعوة

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية: {وأنذر عشيرتك الأقربين}[الشعراء:214]، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: " يا بني فهر، يا بني عدي- لبطون قريس- حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يخرج رسولاً لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي"؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً ، قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!!" فقال أبولهب: تباً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا! فنزل قول الله تعالى: {تبت يدا أبي لهب وتب}[47][المسد:1].

وعن أبي هريرة: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه{وأنذر عشيرتك الأقربين}فقال: اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدالمطلب: لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب: لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله: لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله: سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً"[48].

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ. فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام قومه على دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة في بلده مرموقاً بالثقة والمحبة، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره، ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء. وأول قوم يغامر بخسران مودتهم، هم عشيرته الأقربون! لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره. فلا عليه أن يبيت بعد

47 - حديث صحيح أخرجه البخاري(8/400-408-509-510) ومسلم (1/134) والآية من سورة المسد:1.

48 - حديث صحيح أخرجه البخاري: (8/408) ومسلم (1/م13) من طريقين عن أبي هريرة.

هذا الإنذار ومكة تموج بالغرابة والاستنكار، وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغته، وتخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها[49].

49 - الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة ص88.

سنة الابتلاء

أجمع المشركون من أهل مكة على محاربة الدعوة التي عرّت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم – آراءهم وأفكارهم – وتصوراتهم عن الله والحياة والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها، أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها. فكانت هذه المحاولات الكثيرة لإيقاف هذه الدعوة من حروب مختلفة وأهمها ثلاثة أنواع من الحروب :

النوع الأول: حرب الإضطهاد:

وقد وجهت للضعفاء الذين لا عزوة لهم ولا عصبية. والرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يملك شيئا، وليس لديه ما يقدمه من حماية إذ رأى أسرة كأسرة عمار بن ياسر هو ووالده وأمه – رضى الله عنهم – إذ رأى الأسرة تعذب ماذا يقول لها ؟ لا يستطيع أن يقول إلا "اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة "[50]، وعن جابر – رضى الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال: " أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة "[51].

النوع الثاني: حرب السخرية:

وحرب السخرية كانت حربا فيها نوع من الإيذاء النفسي ومن الإحراج البالغ، كانت حربا موجعة { وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون }[الحجر:6]، { إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (29) وإذا مروا بهم يتغامزون(30) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين(31) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون(32)} [المطففين]، إنهم يضحكون ويسخرون وينكتون غمز ولمز وتنكيت، لكن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ثبتوا وصبروا على هذا كله.

---

50 – ذكره الهيثمي في المجمع 293/9 وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات.

51 – رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم 388/3.

النوع الثالث: حرب المقاطعة والحصار:

وهى حرب مؤذية عندما يكون الإنسان تاجرا ثم تتقرر مقاطعته، أو عندما يكون له بنات وبنون فيتقرر ألا يتزوج أحد من بناته، هكذا صنع المشركون بأتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم تحملوا هذا كله[52]، وكان هذا الحصار الاقتصادى والاجتماعى فى آخر العام السابع من البعثة فازداد إيذاء المشركين من قريش، أمام صبر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون على الأذى وإصرارهم على الدعوة إلى الله، وإزاء انتشار الإسلام فى القبائل، وبلغ هذا الأذى قمته فى الحصار المادي والمعنوي والذي ضربته قريش ظلما وعدوانا على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن عطف عليهم من قرابتهم[53].

قال الزهري: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمون الجهد، واشتد عليهم البلاء وأجمعت قريش فى مكرها، أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانا ويقينا فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا فى ذلك صحيفة وعقودا ومواثيق، ولا يتقبلوا من بني هاشم أبدا صلحا، ولا يأخذهم بهم رحمة حتى يسلموه فى القتل[54].

واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني عبد المطلب، حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته حتى أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء

52 – الشيخ محمد الغزالي:خطب الشيخ محمد الغزالي في شئون الدين والحياة ج1ص 153،154.

53 – انظر: ظاهرة الإرجاء، د.سفر الحوالي(50/1)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص243.

54 – تفاصيل قصة الشعب وما تخللها من أحداث، دلائل النبوة للبيهقي(85،80/2)، السيرة النبوية لابن كثير (43/2: 71)، والروص الأنف (129/2)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص244.

تحته فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها، ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون [55] من وراء الشعب من الجوع [56].

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله - سبحانه وتعالى – لنقض الصحيفة أناسا من أشراف قريش فنقضوا الصحيفة وفكوا الحصار عن إخوانهم وأقاربهم وبنوا عمومتهم

---

55 - يتضاغون: يصرخون.

56 - انظر: الغرباء الأولون(ص148)، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم(7)، نقلاً عن السيرة النبوية للصلابي ص244.

من الدعوة إلى الدولة ومن العبادة إلى القيادة[57]

هذا هو وصف لمرحلة جديدة من مراحل وصور جهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله، وهو أيضاً وصف مهم لهجرة النبي وأهميتها في نشر هذا الدين، والوصول إلى عالمية الرسالة.

في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم:

والتقى أهل مكة بأهل يثرب، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد. فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ، وكان الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث. ولا تزال سيوفهم تقطر دماً. فألّف الإسلام بين قلوبهم. ولو أنفق أحد ما في الأرض جميعاً ما ألف بين قلوبهم. ثم آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وبين المهاجرين. فكانت أخوة تزري بأخوة الأشقاء. وتبذ كل ما روي في التاريخ من خلة الأخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة- المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار- نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس ومادة للإسلام، فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده، وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التي أحدقت بها. لذلك قال الله تعالى لما حضّ على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: { إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}[الأنفال:73][58].

انحلت العقدة الكبرى:

ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكي جمرة قلوبهم، ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخاً في

---

57 - هذا الوصف سمعناه من أستاذنا الدكتور صلاح سلطان الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف-مصر.

58 - أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون ص 84.

الدين وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل المرضاة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم وفقهاً في الدين ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكره، وينفرون في سبيل الله خفافاً وثقالاً . قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين. وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة. فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم. ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه. وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها. وانحلت العقدة الكبرى- عقدة الشرك والكفر- فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي[59] .

دعائم دولة الإسلام في المدينة:

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة كبناء المسجد الاعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي مكة، وإعداد الجيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في كافة شئون الحياة فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع وتأسيس الدولة.

59 – أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون ص 84،85.

وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني. واستمر البناء التربوي ففرض الصيام، وفرضت الزكاة وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية[60].

اللهم هل بلغت؟ اللهم اشهد:

نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الألوف المؤلفة وهي تُلبي وتهرع إلى طاعة الله عزوجل، فشرح صدره انقيادها للحق، واهتداؤها إلى الإسلام وعزم أن يغرس في قلوبهم لُباب الدين، وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام.

فألقى هذه الخطبة الجامعة[61].

" أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت.

فمن كانت عنده أمانة فليؤده إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون.

قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله.

---

60 - الصلابي: السيرة النبوية ص388.

61 - حجة الوداع، وقد رواها ابن هشام عن ابن اسحاق بدون إسناد وقد جاء سندها في أحاديث متفرقة يطول الكلام في بيانها. وتفصيل ذلك في كتابي الكبير "حجة الوداع" أرجو من الله أن يوفقني لإتمامه. وقسم كبير منها في حديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه وقد جمعت طرقه وألفاظه في رسالة لطيفة طبعت في المطبعة السلفية بمصر، نقلاً عن فقه السيرة للشيخ / محمد الغزالي ص388.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب- وكان مسترضعاً في بني ليث فقتله هذيل- فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد- أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطمع فما سوى ذلك فقد رضي به، مما تحقرون من أعمالكم! فاحذروه على دينكم!..

أيها الناس: {إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين} [التوبة:37].

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض،وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد: أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً.

لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيراً. فإنهن عندكم عوان[62]، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً.

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بينت..

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه..

62 - عوان: أسيرات.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه.. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟

قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد"[63].

هكذا كانت حجته الأخيره الوحيده سنة 10 هـــ – حجة الوداع والبلاغ- قرر النبي صلى الله عليه وسلم فيها المبادىء الإسلامية الخالدة، التي إذا اتبعها البشر نجوا جميعاً، بل لا أبالغ إذا قلت: أن حجة الوداع هي التي مثلت " الحقوق المدنية الإسلامية "، والتي لا يستطيع المجتمع المسلم أن ينهض إلا بتنفيذها وتطبيقها في أرض الواقع[64].

وهكذا استطاع النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم أن يحيي أمة من العدم، وأن يرتقى بها في مدارج الكمال.. حتى انتشر نورها وعم خيرها وسادت مبادئها وتوطد سلطانها في قارات ثلاث.. في أقل من ثلاثين سنة، وامتدَّ نورها بعد ذلك ليعم البشرية كلها شرقًا وغربًا- ووصل النور إلى (أوروبا) ليخرجها من ظلمات القرون الوسطى إلى نور الحضارة والتمدن من خلال (الأندلس) عاصمة الحضارة الإسلامية في بلاد الغرب كما شهد بذلك كل المنصفين من علماء الغرب والشرق على سواء.

لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم توازنًا عادلاً بين الروح والجسد ليحقق السلام النفسي للإنسان، ففي الوقت الذي حثَّ الناس على العمل للدار الآخرة أمرهم ألا ينسوا نصيبهم من الدنيا {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: 77]، وحقق السكن والطمأنينة في المجال الأسرى فأمر بالزواج تلبيةً لحاجة الفطرة وإعفافًا للنفس وتطهيرًا للمجتمع وإعمارًا للأرض، وأضفى قداسةً على عقد الزواج حتى سمَّاه ميثاقًا غليظًا، ونظَّم العلاقة بين الزوجين من حيث المسئولية والنفقة ورعاية الأبناء والإرث وغير ذلك من التشريعات المنظمة، وأقام توازنًا بين الإنسان والبيئة يُوفِّر للإنسان الاستفادة من ثروات الكون ويحافظ في الوقت نفسه على سلامة البيئة ونظافتها، وحقوق الأجيال فيها فينهى عن الإفساد في

63 - محمد الغزالي: فقه السيرة ص388،389.

64 - محمد عمارة: مؤتمر الحج الأكبر، مجلة الأزهر، ذو الحجة 1433 هـــ ، نوفمبر 2012م ببعض التصرف.

الأرض {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [الأعراف: 56]، {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 77]، ويأمر بإعمارها وتنميتها {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: 66]، فحضّ على الزرع وإحياء الأرض الموات حتى ولو قامت القيامة "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"[65]. [رواه أحمد في المسند].

وأمر بالرحمة والحفاظ على العمران ولو في حالة الحرب "اغزوا باسم الله، لا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا شيخًا مسنًّا، ولا تهدموا بيتًا، ولا تقطعوا شجرة"[66]، وتعدت هذه الرحمة الإنسان ووصلت إلى الحيوان "غفر الله لرجل سقى كلبًا كان يأكل الثرى من العطش"[67]، "إنَّ لكم في كل كبد رطبة أجرًا"[68].

ولذلك قال المؤرخ الإنجليزي (وليام موير) في كتابه (حياة محمد): (لقد امتاز محمد صلى الله عليه وسلم بوضوحٍ كلامه، ويسر دينه، ولقد أتمَّ من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد)[69].

هذه بعض الصور من جهاده الطويل صلى الله عليه وسلم، والذي غيّر فيه العالم من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

---

65 - الفسيلة: النخلة الصغيرة.

66 - عند البحث وجدناه من كلام أبي بكر رضي الله عنه لجنده عند الحرب.

67 - أصل الحديث: ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر».

68 - أي حيوان أو كائن حي.

69 - رسالة المرشد العام للإخوان المسلمين: حاجة العالم إلى محمد صلى الله عليه وسلم 2012/9/27م.

الفصل الثالث

ما أشبه اليوم بالأمس والليلة بالبارحة

عاشت البشرية زمناً مع تعاليم الإسلام الراشده، وأخلاق محمد صلى الله عليه وسلم الرائدة، ومنهجية القرآن الربانية، فشفيت من عللها، وبرئت من أدرانها، وعمّ الخير والعدل أنحاء المعمورة في ظل الخلافة الراشدة، ثم ما لبثت أن عادت من جديد إلى حالها الأول في ثوب جديد، فطغت المادية على تعاليم السماء، وطغت التعاليم والقوانين الوضعية على التعاليم الإلهية، وبدأت البشرية تحبو من جديد، وسوف نتحدث عن أسباب انحدارها، ووصولها إلى هذه الهوة العميقة، التي لا ملجأ منها إلا بالرجوع إلى تعاليم الإسلام.

بطلان الحاسة الدينية:

ما هي غاية هذا العالم الذي ينتهي إليها، ومصيره الذي يصير إليه؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى؟ وما هو وضعها إذا كانت؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات في الحياة الدنيا؟ ومن أي منبع تستقى هذه المعلومات؟ وما هي الطرق والأسس التي إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية؟ وما مصدر هذه الطرق؟ وما هي الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق؟

تلك أسئلة ورثها الشرقي أباً عن جد، وشغلت خاطره، وأزعجت فكره طيلة قرون و لم يقدر أن يذهل عنها ويتناساها حتى في لهوه وزهوه، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه، ونداء ضميره، و لم يستطع أن يتصام عنه ويطوي دونه كشحاً بل أصغى إليه في رغبة ونصيحة وإخلاص.

ولا شك أيضاً أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين في العصر الحديث، واستمروا يبحثون فيها ويؤلفون ويتناقشون، ولكن كلما قطعت المدنية الحديثة شوطاً تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطاً، ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هي في مظهرها المادي خفت- في ضجتها- هذا الصوت الذي كان ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير

الإنساني الحي، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس في قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة في المدارس والمجامع العلمية والمكاتب العامة، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون وتظهر لهم في هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى، ولكن الذي لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار، وامحت علامة الاستفهام الواضحة النيرة التي كان يراها كل إنسان عاقل فيقف أمامها كما تقف السيارة أمام الإشارات، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك في صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك في صدورهم ، فرجل العصر قد صرف النظر عن هذه الأسئلة، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياة ثانية وكانت الجنة والنار والثواب والعقاب والنجاة والهلاك أو لم تكن، لأن شيئاً من ذلك لا يمس مسائله اليومية، ولا يتصل بشخصه وعياله في الساعة الحاضرة.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

قال س م جود:

" ثارت في قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين، لم يطمئن بعض أصحابها و لم يرتاحوا إلى جواب مقنع، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزعجه الأسئلة رأساً، ولا تحيك في صدره ولا تنشأ في هذا العصر أصلاً "[70].

تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب:

ولكي يتضح لنا أثر الإيمان (الحاسة الدينية) في تغيير العادات المتمكنة، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً، وترك الشر وإن كان مألوفاً ومعتاداً-نقيم موازنة بين موقفين في مشكلة واحدة: موقف من التاريخ الحديث، وموقف من التاريخ القديم، يُصوِّر لنا كيف يصنع وازع الإيمان ما يعجز عنه وازع السلطان. الموقف الأول في الولايات المتحدة الأمريكية.. وقد انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمور انتشاراً أقنع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة

70 - أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون ص 204، 205.

والمجتمع، فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر، ثم تبين لها بعد مدة يسيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها، وأن أفراداً وجماعات أخذوا يعيثون في الأرض فساداً بتعاطي الخمور وتهريبها والاتجار بها، والتفنن في صناعتها على استخفاء، واستحضار أخبث أنواعها أكثر من ذي قبل.

ففي حوالي عام 1918 ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي، وفي عام 1919 أدخل الدستور الأمريكي تحت عنوانه: " التعديل الثامن عشر " أيد هذا التعديل بأمر حظر، أطلق عليه التاريخ قانون " فولستد ". وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة :

1- جنِّد الأسطول كله لمراقبة الشواطئ ، منعاً للتهريب .

2- جُنِّد الطيران لمراقبة الجو .

3- شُغلت أجهزة الحكومة واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر وبيان مضارها، وجُنِّدت كذلك الصحف والمجلات والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها، وقد صرفت الدولة في الدعاية ضد الخمر ما يزيد عن ستين مليوناً، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشرة عاماً لا يقل عن مائتين وخمسين مليون دولار، وقد أعدم في هذه المدة ثلاثمائة نفس، وسُجن 532و335 نفس، وبلغت الغرامات أربعمائة مليون وأربعة ملايين دولار، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر، وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة 1933 إلى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة[71].

71 - ذكر هذه الإحصاءات الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه "تنقيحات" وعنه نقلها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه" ماذا خسر المسلمون بانحطاط العالم" ص177 هامش، نقلاً عن كتاب الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي.

لقد فشل القانون، وعجزت السلطات، وأفلست أجهزة الدولة، في منع الخمر ومحاربة السكّيرين، برغم الاقتناع العقلي الذي كان سائداً في الأمة بضرر الخمر، ولكن الاقتناع شيء، وعمل الإرادة شيء آخر.

ولقد قال أحد الكتاب الغربيين بحق: " إن طلب شيء في تصميم وقوة يتطلب روحاً في التعبد والتقشف، أي تكريس الحياة لبلوغ مثل أعلى واحد، اختاره الإنسان بعناية وتفطن .. إن الإرادة تغلب دائماً الثقافة، حينما تكون الثقافة لا المبادئ الدينية هي التي يركز عليها تصميم المرء ونشاطه ومدده الروحاني "[72].

فشلت الأساطيل ونجح الإيمان:

هذا موقف، والموقف الآخر من تاريخنا العربي الإسلامي القديم:

فقد بُعِثَ محمد رسول الله وللخمر في المجتمع العربي سريان وانتشار. تجري من نفوس أبنائه مجرى الدم، يتمدحون بشربها، ويفتنون في وصفها ووصف مجالسها وندمائها وأقداحها، ومن أدلة شغفهم بها، وتمكنها من نفوسهم، أن كثيراً من الصحابة بعد أن نزلت الآيتان الأوليان في شأن الخمر:

{قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس} [البقرة:219]،{لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى}[النساء:34]. و لم يكن التحريم فيهما صريحاً حاسماً، لم يزالوا يشربون الخمر ما دام في النص متسع لهم.

ذلك أن الإسلام تدرج معهم في تحريم الخمر- رفقاً بهم وتيسيراً عليهم- حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون(90) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون(91)} [المائدة].

72 - يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة ص201،202،203.

وهنا رأينا العجب.. رأينا الرجل يحطم كأسه، ويسفك ما عنده من خمر في الطريق حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها.

عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا أيها الناس؛ إن الله يبغض الخمر، ولعل الله سينزل فيها أمراً، فمن كان عنده شيء فليبعه ولينتفع به" (وذلك قبل التحريم النهائي) قال أبو سعيد: فما لبثنا إلا يسيراً، حتى قال: " إن الله حرَّم الخمر، فمن أدركته هذه الآية- يعني آية المائدة- وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع " قال أبوسعيد: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طُرق المدينة فسفكوها- أي صبوها وأسالوها- [رواه مسلم].

وعن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب فجاءهم آت فقال: إن الخمر حُرِّمت .. فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها. فأهرقها[73].

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصاراً على النفس، وسرعة في الاستجابة، وقوة في الانقياد للأمر مهما يكن مخالفاً للعادات، ومصادماً للشهوات؟[74]

طغيان المادية والمعدة:

من أسباب انحدار البشرية ووصولها إلى هذه الهوة العميقة أيضاً، طغيان المادية والمعدة، نعم تضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال، وتولد في الناس غليل لا يَرْوي وأوار لا يُشفى، تسلط على الناس شيطان الجشع والحرص فكأن بهم مساً من الجنون، وأصبح الإنسان نهماً يلتهم الدنيا التهاماً، ويستترف موارده حلالاً وحراماً، ثم لا يرى أنه قضى لبانته وشفى نفسه، والعهدة في ذلك على وضع الحياة الحاضرة وطبيعتها وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة، وخليق بمن لا يعتد إلا بحياته الدنيا ولا يرى وراءها عالماً آخر وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته ورأس ماله وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه، وأن لا يؤخر

73 - متفق عليه.

74 - الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي ص 204،205بعض التصرف.

من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئاً وأن لا يضيع فرصة من فرصها، ولأي عالم يدخر وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم، ولا بحياة بعد هذه الحياة؟

وقد عبر عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد في صراحة وبساطة فقال:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

كريم يروِّي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غداً أينا الصدى

وكل إنسان متمدن اليوم- إلا من عصمه الله بالإيمان- يرى هذا الرأي ويذهب هذا المذهب في الحياة، إلا أنه قد يجرؤ على أن يصرح به، وقد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذي يعبر عن ضميره[75].

التدهور في الأخلاق وفساد المجتمع:

فإن الناظر للمجتمعات الغربية الآن يرى تحللاً في الأخلاق، وتردي للقيم، فقد استطاع الإنسان الغربي أن ينهض في كل شيء، ويمتلك زمام التقدم في كل شيء؛ إلا أنه تخلف تخلفاً معلوماً ومشاهداً في الجانب الأخلاقي، فرأينا أعلى نسب الانتحار في العالم في الدول التي فيها أعلى مستوى دخل للفرد، والمرأة التي يتغنى بها الغرب في المساواه، أصبحت سلعة رخيصة تباع وتشترى، ليس للإنسان تجاهها مشاعر إلا مشاعر الغريزة والشهوة، كذلك المجتمعات الغربية أصبحت مفككة، ليس فيها روح الحب والمودة والإيخاء، ولكنها قائمة على المنفعة والمصلحة.

هذا هو حال المجتمعات الغربية الآن، تستغيث بمن يخرجها مما هي فيه، ولا مجيب لها إلا إذا اتبعت تعاليم الإسلام وصارت في ركابه.

الانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان:

75 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون ص 211،212.

وهذه أصبحت سمة معلومة لدول الغرب، فهي تنادي في كل مكان بحقوق الإنسان، واحترام آدميته، وأحاسيسه ومشاعرة، وتسعى لعقد المعاهدات والاتفاقيات، في حين أنها أول من يخترق هذه المعاهدات والاتفاقيات، وما حدث في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي منا ببعيد، وما حدث في العراق وأفغانستان، والسكوت الواضح على ما يرتكبه الكيان الصهيوني ونظام الأسد العلوي[76] منا ببعيد، وهكذا وصلت أوروبا إلى هوة عميقة، ليس لها منها كاشفة؛ إلا بتعاليم الدين السماوية، واتباع أخلاقه الراشدة.

76 - نظام بشار الأسد في سوريا.

أسباب الانحراف في الأمة الإسلامية وآثاره

أشرنا في الفقرة السابقة عن أثار الانحراف في العالم الغربي، ونشير هنا إلى آثار الانحراف في العالم الإسلامي، فنبين هنا ماهية هذا الواقع المعاصر، وكيف وصلنا إلى واقعنا المعاصر الذي نعيشه في هذه اللحظة، ليتيسر لنا فيما بعد أن نتعرف على طريق الخلاص[77].

نقلب صفحات الماضي المجيد ونجد أن القرآن يتحدث عن هذه الأمة فيقول:{كنتم خير أمة أخرجت للناس}[آل عمران:110]. ننظر إلى واقعنا وننظر إلى ماضينا ونجد البون الشاسع والفرق الهائل. ننظر كيف كانت هذه الأمة التي هابتها الفرس والروم ثم كيف أصبحت غثاء كغثاء السيل لا يأبه الله بهم في أي واد هلكوا.بعد أن كنا سادة وقادة، ماذا دهانا وماذا أصابنا ؟

ويذكرنا الشاعر ويثير كوامن الحسرة والأسى عندما يقول في أبياته:

إني تذكرت والذكرى مؤرقة مجدا تلدا بأيدينا أضعناه

أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوصا جناحاه

كم صرفتنا يد كنا نصرفها وبات يملكنا شعب ملكناه

من أبرز الأسباب التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه:

سقوط الخلافة الإسلامية:

منذ بزغ فجر هذه الرسالة والخلافة قائمة يتناقلها خليفة عن خليفة وجيل عن جيل، وأمة عن أمة، وأدرك العدو أنه لن تموت هذه الأمة مادام لها أمير للمؤمنين فسلطوا سهامهم وشرعوا أسلحتهم وحاكوا المؤامرات تلو المؤامرات حتى أسقطوا هذه الخلافة.

77 - محمد قطب: واقعنا المعاصر ص165.

ويخف الألم لو كان الداء سقط بأيدي أعدائنا، ولكن مع الأسف أن بعض المسلمين هم الذين ساعدوا أعدائنا على سقوط الخلافة.

استطاعت أوربا ممثلة ببريطانيا أن تصور أن الخلافة شبح رهيب، وسموه بالرجل المريض وأثاروا النعرات والقبليات، ثم بعد ذلك ساعدهم كثير من المسلمين حتى اعتبروا أن عدوهم الأول هي الدولة العثمانية أو الخلافة الإسلامية حتى أسقطوها[78].

فصل الدين عن الدولة:

فصل الدين عن الدولة سبب رئيسي للمآسي التي نعيشها، لأنه لا يمكن أن يُحكم البشر إلا بشريعة رب البشر، فإذا أبعدت هذه الشريعة عن الساحة حُكم البشر بسنن البشر، والبشر عاجز وقاصر، وبهذا حل فينا ما حل فينا. ويزداد ألمي عندما أجد أن كثيرا من المنتسبين للإسلام، والإسلام منهم براء أشد اقتناعا بفصل الدين عن الدولة أي بالعلمنة بمفهومها الصحيح.

والعجب! أنك ترى في هذه الفترة وفي هذا الوقت يرفع الرئيس الأمريكي في انتخابات الرئاسة الأمريكية الإنجيل أمام جمهوره ويقول:

(آن الأوان لأن نُحكم بالإنجيل، آن الأوان لعودة حُكم الدين للدولة).

هكذا يقر ويعترف بأن فصل الدين عن الدولة جنى على أمته الويلات، والمسلمون يقولون: دع ما لله لله وما لقيصر ليقصر، ونقول لهم الكل لله –سبحانه وتعالى- {الملك يومئذ لله}[الحج:56][79].

الهزيمة النفسية أمام الأعداء:

وهذه القضية من اخطر ما أدى بنا إلى ما نحن فيه وهي قضية مهمة جدا.

---

78 – ناصر بن سليمان العمر: أسباب تخلف المسلمين ببعض التصرف، موقع جامعة أم القرى.

79 – المرجع السابق.

يقول الأمير شكيب أرسلان:(من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلط هذا الداء على أمة إلا ساقها إلى الفناء).

الهزيمة النفسية مرض خطير أشد فتكا من مرض السرطان، والمسلمون الآن أصيبوا بالهزيمة النفسية، وما دخل علينا الأعداء إلا بعدما أصبنا بالهزيمة النفسية[80].

الجهل وتخلف المسلمين في العلوم الإسلامية والعلوم المادية:

المسلمون أو كثير من المسلمين جهلة في دينهم جهلة في دنياهم، وهذا سبب أساسي ورئيسي للمرض الذي نعيش فيه، وللداء الذي وصلنا إليه. فالجهل الذي أصابنا، والجهل الذي حل بأمتنا أودى بنا إلى ما نعيشه الآن، ونتجرع كؤوس الذل والهوان تبعاً لذلك[81].

الإعجاب بالغرب واعتباره القدوة الصالحة:

الإعجاب بالغرب إعجاب يبينه البعض ويبيته البعض الآخر، حتى وصل الإعجاب بالغرب أن يكون الذهاب إلى بلادهم أمنية يتمناها كثير من المسلمين، فيفتخر أنه زار أمريكا، أو زار أوربا أو زار الشرق أو الغرب.

يسأل أحد شباب المسلمين من هو مثلك الأعلى ؟

ويجب أن يكون مثله الأعلى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن اسمعوا ماذا قال:

قال إن مثلي الأعلى هو لاعب الكرة (ماردونا).

---

80 - المرجع السابق.

81 - المرجع السابق.

نعم هذه حقائق تنطق بين أظهرنا وبين جنباتنا، هذا إعجاب بالغرب أوصلنا إلى ما وصلنا إليه، أعتبرهم الكثير أنهم هم القدوة الصالحة[82].

نشوء العصبيات والقبليات:

العرب أمة مشتتة مفرقة، جاء الإسلام وهي هكذا، جمعتهم ووحدتهم كلمة الإسلام، كلمة لا إله إلا الله، ودان الشرق والغرب لهذه الكلمة بعد العصبيات وبعد التفرق.

وفي المدينة وهي قرية صغيرة كانت تسمى يثرب، الأوس والخزرج وكل واحد منهم كان يركن إلى أحد اليهود، وجاء الإسلام فقضى على هذه الأشياء.

و رأى العدو أن من افضل الوسائل التي تبعدنا عن منهجنا وعن ديننا أن ينشيء فينا العصبيات، نسمع القومية العربية، القومية التركية، القومية الكردية.

عصبيات وإقليميات وقوميات ووطنيات مزقوا فيها شمل أمتنا ونحن الذين نحمل اللواء مع كل أسف.

إذا قضية التفريق بأسم الوطنيات والقوميات والعصبيات من الأسباب الرئيسية التي أوصلتنا إلى هذا الوضع الذي نحن فيه[83].

الآثار التي نتجت عن ذلك:

أولاً: التخلف العقيدي:

82 - المرجع السابق.

83 - المرجع السابق.

إن أول ما يبدهنا حين ننظر إلى القرنين الأخيرين- والقرن الأخير خاصة – هو الغبش الشديد المحيط بحقيقة الإسلام في نفوس المسلمين، والبعد المتزايد عن هذه الحقيقة في الحياة الواقعية. أي أنه فساد في التصور وفساد في السلوك[84].

تعلقت نفوس المسلمين بالخرافات، وتركوا العمل والإنتاج، اهتموا بظواهر العبادات، ولم ينتبهوا إلى مضمونها، فأصبحت لا تؤدي فعلها الحقيقي في حياتهم وواقعهم.

غابت فرائض كثيرة بين المسلمين، وأهمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فانتشرت البدع والمنكرات، وكثرت الأعراف المذمومة الخارجة عن نطاق الدين، ووسطية الإسلام.

وفي إطار هذه المادية الطاحنة أهتم الناس بالأرزاق والمعيشة، ونسوا حقوقاً وواجبات ينبغي أن يؤدوها في حق الله.

ثانياً: الفساد السياسي:

فإن الأساس في قيام الحكومات أن تسهر على مصالح الناس، وأن يكون رجالها خُدَّاماً للشعب، وحراساً على حقوقه.

والمفهوم – شرعاً ووضعاً- أن الأمم تندب أكفأ أبنائها للقيام بهذه الأعباء الضخمة، وتنفحهم- لقاء ذلك- أجوراً كبيره، فضلاً عما تحيط به أشخاصهم من تكريم وتوقير هم أهل له، بكفايتهم المفترضة وأمانتهم المرتقبة..

ذلك هو الأساس الذي لم يصدقه الواقع المر إلا قليلاً. فلا الأمم كانت تختار حكامها، ولا هؤلاء فهموا عملهم على وجهه المرضي[85]

ثالثاً: الانحراف الفكري:

---

84 - واقعنا المعاصر: محمد قطب ص 165.

85 - محمد الغزالي: الإسلام المفترى عليه ص67.

ويتمثل هذا بالإلحاد وانتشار المذاهب الهدامة، وما كنا نرى انتشار المذاهب الهدامة المنحرفة من شيوعية وغيرها إلا في ظل هذا الوضع المتخلف الذي نعيش فيه، وهذا أثر من آثار الوضع القائم[86].

رابعاً: فساد بعض مناهج التعليم:

فساد بعض مناهج التعليم من آثار التخلف الفكري، وتختلف البلاد في ذلك من بلد إلى بلد بمستوى هذا الفساد، فبعضها لا يعترف بالشريعة الإسلامية أو بمناهج التربية الإسلامية إطلاقا.

وبعضها يضعها في منزلة كمناهج النصارى واليهود، وبعضهم يأخذ منها ويزدادون وينقصون على حسب اختلاف القائمين على الأمر.

إنما الانحراف في مناهج التعليم، وفساد بعض مناهج التعليم أثر من آثار التخلف الذي نحن فيه[87].

خامساً: الخلل الاجتماعي:

والخلل الاجتماعي يتمثل في عدة صور ومنها: الأسرة، هل الأسرة الآن كما كانت قبل عشرين سنة أو ثلاثين سنة ؟

للأسف الشديد أوضاع الأسرة الآن مؤلمة ، فالعلاقة بين الزوج وزوجته، والعلاقة بين الابن وأبيه، والعلاقة بين الأخ وأخيه،كل هذه الأوضاع للأسر تعاني الآن من مرض عضال.

ولو ذهبنا إلى مراكز التربية الاجتماعية، ولو ذهبنا إلى المستشفيات، ولو ذهبنا إلى المحاكم لوجدنا كم تعاني الأسر من قلق ومن مرض.

وكذلك من اوجه الخلل الاجتماعي المرأة، فقد استخدموا المرأة سلاحا فتاكا حتى أوصلوا نساء المسلمين إلى وضع لا نحسد عليه أبدا.

---

86 - ناصر بن سليمان العمر: أسباب تخلف المسلمين ببعض التصرف، موقع جامعة أم القرى.

87 - المرجع السابق.

كذلك من آثار الخلل الاجتماعي، الانحراف الخلقي، فهناك انحراف خلقي لدى كثير من شباب المسلمين، تمثل في العديد من المظاهر التي يأباها أصحاب الخلق الرفيع[88].

سادساً: الفساد الاقتصادي:

وما عرفنا النظام الرأسمالي أو النظام الغربي والنظام الاشتراكي إلا بعد تخلفنا.

لدينا إسلامنا بنظامه الاقتصادي الإسلامي الغني بمقوماته، ولكن الكثير من العالم الإسلامي الآن بين من يعمل بالرأسمالية وبين من يعمل بالاشتراكية، وقليل من نقول أنه يعمل بالنظام الاقتصادي الإسلامي.

ومن مظاهر هذا التخلف أو هذا الخلل:

- استغلال ثروات الأمة من قبل أعداءها.

- استثمار أموال المسلمين في بلاد الغرب.

- ثم أيضا أهم المشاريع التنموية التي تقام في بلاد المسلمين تقام تحت ظل الشركات الغربية والشرقية[89].

---

88 - المرجع السابق.

89 - المرجع السابق.

بصيص من الأمل

بعد هذه الأسباب التي ذكرناها لتدهور الأمة الإنسانية، وجد بصيص من الأمل، وقد تمثل هذا البصيص في وجود أمرين مهمين:

الأمر الأول: جيل الصحوة الإسلامية:

هذا الجيل الذي حمل أهداف الإسلام بين جنباته، وأراد أن ينشرها في ربوع العالم، غايته الحق تبارك وتعالى، وقدوته محمد صلى الله عليه وسلم، ودستوره القرآن الكريم، وسبيله الجهاد في سبيل الله، وأسمى أمنيته الموت في سبيل الله.

هذه الصحوة التي امتدت في أرجاء المعمورة تبلغ دين الله، وتبعث الأمل من جديد في نفوس الحيارى، والمتشوقين إلى الحياة من جديد، وقد منَّ الله عليهم بفتوحات عظيمة، وصلت إلى أقصى بقاع الأرض.

الأمر الثاني: ثورات الربيع العربي:

هذه الثورات العربية، التي منّ الله بها علينا ضد الظلم والطغيان والفساد، هؤلاء العملاء الذين لم يكن لهم هدف إلا محاربة الدين، ومصادرة أهله، واعتقالهم، والتنكيل بهم.

أذن الله بهذه الثورات العربية، فأصبحت بصيصاً من الأمل، استنشقت فيه الشعوب الإسلامية المخلص من شقاءها وتخلفها وتراجعها في كل المجالات.

هذان الأمران هما بصيص من الأمل يفتح الطريق من جديد لسيادة تعاليم الإسلام، ونشر أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من جديد، بعدما بذل أعداء الله الغالي والنفيس في طمسها، وإزاحتها عن الحياة، وصدق الله العظيم: { ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال:30].

الفصل الرابع

تعاليم خالدة وأدوية ناجعة

بعد ما ذكرناه من تدهور الإنسانية، ووصولها إلى هذه الهوة العميقة، تحتاج البشرية إلى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من جديد، هذه الأخلاق هي الكفيلة بإصلاح البشرية وإخراجها مما هي فيه، يقول مؤلف "قصة الحضارة" الباحث الأمريكي ول ديوارنت :« إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانًا غيره حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه.. وكانت بلاد العربي لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلاً واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا وقوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[90].

90 - ول ديورانت : قصة الحضارة 47/13، نقلاً عن كتاب حاجات البشرية في رسالة محمد ص3،4.

عبادة الله وحده

نقل محمّد صلى الله عليه وسلم البشر – بوحي الله إليه – من عبودية البشر والخضوع لهم إلى عبودية الله وحده لا شريك له فأصبح الإنسان حرّاً من عبودية غير الله تعالى وهذا أعظم تكريم للإنسان.

فقد كان الوضع السائد قبل بعثة النبي محمّد صلى الله عليه وسلم هو النظام الطبقي على أساس قبلي ونفوذ مالي، وعلى أساس سادة وعبيد، فالأغنياء والزعماء سادة متبوعون ومتنفّذون، والفقراء والملوّنون (وهم السّود غالباً) عبيد أتباع خاضعون.فكان العبيد لا يختلفون عن المتاع المادي الذي يمتلكه الإنسان بيعاً وشراءً وهبةً وغيرها من صور التعامل، مع الغياب التام للشعور الإنساني في التفريق بين الأمّ وابنها، والأب وابنه، والزوجة وزوجها، ببيع أو شراء أو هبة!

وكانت الوثنية تضرب أطنابها من خلال عبادة الأصنام والأشجار والأحجار والتقرب إليها.

وكان السادة المتنفّذون يفرضون أعرافاً وأوضاعاً هي أقرب إلى التشريعات، يلزمون بها الناس ويخضعونهم لسلطانها. فنازعوا الإله المعبود الحقّ في سلطانه وألوهيته التي تستوجب أن يكون العباد كلهم: أبيضهم وأسودهم، غنيّهم وفقيرهم، عريق النسب فيهم والمولى.. كلهم خاضعين لسلطان الله وحكمه وحده؛ ولهذا أرسل الله نبيه محمّداً صلى الله عليه وسلّم برسالة الإسلام التي شعارها : لا إله إلا الله محمّد رسول الله.

فدعا صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإقرار بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته، وتفرّده باستحقاق العبادة والطاعة المطلقة له وحده دون سواه – معه أو من دونه–؛ قال الله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة: 21]، وقال: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب} [الحج: 73].

وقد عبّر أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النقلة التي نقل بها الإسلام حياة

العرب من الذل والعبودية إلى العزة والكرامة، وكيف خرجوا من ظلمات العبادة والخضوع للأشخاص إلى عبادة الله وحده التي بها شعروا باتساع الدنيا وفسحتها في ظل التوحيد لله وعبادته وحده دون سواه ، يقول في ذلك ربعي بن عامر مخاطباً أحد عظماء الفرس: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» [91].

يقول الفرنسي الذي اعتنق الإسلام في الجزائر إتيين (نصر الدين فيما بعد) دينيه في كتابه : "محمد رسول الله" إذ يتحدث عن ميزات الرسالة وعالميتها ودورها الممكن في المستقبل يقول : « وهناك شيء مهم، وهو انتفاء الواسطة بين العبد وربه، وهذا هو الذي وجده أهل العقول العملية في الإسلام، لخلوه من الأسرار وعبادة القديسين، ولا حاجة به إلى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله، وفوق ذلك قد يجد بعض أهل مذهب الاعتقاد بالله دون غيره من العصريين المتحيزين في التعبير عما عاج نفوسهم من التطلع، قد يجدون في الإسلام المذهب النقي للاعتقاد بالله ، فيجدون فيه أبدع وأسمى أعمال العبادة ، وما يمكن أن يتخيله من معنى ألفاظ الدعاء..» [92].

91 - ابن كثير: البداية والنهاية 39/7، نقلاً عن كتاب حاجات البشرية في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ص6،7.

92 - محمد رسول الله ص362،363، نقلاً عن المصدر السابق ص7.

تحرير العقل من الخرافات

حرّر محمّد صلى الله عليه وسلم عقول البشر - بوحي من الله - من الخضــوع للخرافــات والدجل والارتهان للأصنام والمعبودات الباطلة أو التصديق بأفكار مناقضة للعقل كالقول بأن لله ابناً من البشر وبأنه ضحّى به دون خطيئة أو ذنب منه فداءً للبشر.

خيّم على العقل العربي قبل بعثة النّبي محمّد صلى الله عليه وسلم كثير من الاعتقادات والأساطير التي تناقض العقول السليمة التي لا تقبل ما لم يتوافق معها، ومن أهم ما اعتقده الجاهليون دون إعمال للفكر والعقل هو : اعتقاد النفع والضر في حجارة وأخشاب منحوتة بالأيدي، عبدوها مع الله أو من دونه، وخافوا من انتقامها بزعمهم وخوّفوا الأتباع الذين بدورهم عطّلوا عقولهم عن إدراك الخطأ من الصّواب في مثل تلك الاعتقادات.

فأرسل الله النبي محمّداً صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام الذي كرّم الإنسان بالعقل وجعله مناط التكليف بواجبات الدين وأوامره ونواهيه، ورفع الإصر والمؤاخذة عن المجنون الذي فقد عقله، والصغير الذي لم يكتمل نموه العقلي، كما دعا وحثّ بل وجازى على إعمال العقل في البحث عن حقائق الكون والعلوم، ونهى وحرّم كل ما من شأنه أن يؤثّر على العقل كالمسكرات بأنواعها.

وأوّل ما بدأ الإسلام بتطهيره من الخرافات والدّجل هو العقيدة التي خاطبت العقل لإقناعه بصواب الحق الذي جاء به القرآن، وبطلان ما عليه الجاهليون من اعتقادات باطلة كاعتقاد تعدد الآلهة ، من ذلك قوله تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون} [المؤمنون: 91].

فهذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الّبين فيه أنّ الإله الحقّ لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضّر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضا بممالكهم؛ وإذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

- إمّا أن يذهب كلّ إله بخلقه وسلطانه.

- وإمّا أن يعلو بعضهم على بعض.

- وإمّا أن يكون كلّهم تحت قهر إله واحد وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدلّ دليل على أن مدبّره واحد لا إله غيره.

فكما يستحيل أن يكون للعالم ربّان خالقان متكافئان؛ يستحيل أن يكون له إلهان معبودان.

فهذا الإحكام في سياق الدليل على صحّة ما جاء به نبيّ الله محمّد صلى الله عليه وسلم من التّوحيد، وكون الربّ واحداً، وهو المعبود بحقّ وحده دون سواه، هو أقبل في عقول العقلاء، بخلاف ما ادُّعي من أنّ الإله ثالث ثلاثة، أو أنّ الأصنام تشاركه في ربوبيّته واستحقاقه للعبادة وحده.

فأيّ شيء أعظم من هذا التّوحيد الواضح البيّن الذي لم تكن تعرفه البشرية يوم بُعث نبيّ الرّحمة محمّد صلى الله عليه وسلم، وأي عقيدة في الله أوفق للعقل والنظر الصحيح من هذه العقيدة ؟[93]

---

93 - حاجات البشرية في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ص8،9،10.

التسامح والتعايش بين البشر

أرسى محمّد صلى الله عليه وسلم دعائم التسامح بين البشر - وأوحى الله إليه في القرآن- أن لا إكراه في الدّين وبيّن صلى الله عليه وسلم حقوق غير المسلمين الذين لا يحاربون المسلمين وأنّ لهم الأمن على أنفسهم ، وأبنائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وفي بلاد المسلمين إلى اليوم رعايا من اليهود والنّصارى يعيشون حياة كريمة ، بينما قضت محاكم التّفتيش على وجود المسلمين في إسبانيا في تطهير عرقي مخالف للمبادئ المعلنة في الحضارة الغربيّة .

من أعظم قواعد الدين الذي جاء نبيّ الرّحمة محمّد صلى الله عليه وسلم: أن اعتناق الإسلام متروك للقناعة الشخصية للأفراد والجماعات، وأنّ الدعوة إليه تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة لا على الإكراه والإجبار بقوّة السيف أو غيره، وقد ورد في ذلك كثير من نصوص القرآن والسنة، من ذلك :

قوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم} [البقرة : 256].

وقوله تعالى: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً}[الكهف:29].

كما راعى دين محمّد صلى الله عليه وسلم غير المسلمين فنهى عن قتالهم إذا لم يكونوا من المقاتلين، بل ولم يحرّم البرّ بهم والإحسان إليهم ؛ فقال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}[الممتحنة :8].

ومن القواعد العظيمة التي أرساها دين الإسلام كذلك: احترام حقوق غير المسلمين، سواء كانوا رعايا للدولة الإسلامية، أو كانوا خارج الدولة الإسلامية ولم يعلنوا الحرب على الإسلام والمسلمين.. فهؤلاء كلهم لهم حقوق في ذمة كل مسلم حيث يأمنون على أنفسهم وأموالهم

ونسائهم وأولادهم، لا يجوز لمسلم أن يعتدي عليهم في شيء من ذلك. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل معاهَدا لم يرِح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما ». [رواه البخاري].

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه (أي أنا الذي أخاصمه وأحاجّه) يوم القيامة». [رواه أبو داود].

بل لقد استوى أمام القاضي في الحكم والقضاء المسلم وغيره، فعن الأشعث قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « ألك بينة؟» قلت: لا. قال لليهودي: « احلف ». قلت: يا رسول الله، إذا يحلف ويذهب بمالي فأنزل الله إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً إلى آخر الآية. [رواه أبو داود].

ولقد ظلّ هذا الوضع قائماً في بلاد الإسلام إلى يوم الناس هذا، فقد عاش في ديار المسلمين اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الملل الأخرى في ظلٍّ من الأمن والعدل والتسامح قلما يتوافر مثله، وما التصفيات العرقية والدينية التي تشهدها بعض البلاد إلا دليل على قيمة ما قدّمه الإسلام للرعايا من غير أتباعه، وعلى العكس من ذلك فقد عانى المسلمون الويلات من جراء حروب التصفية الدينية والعرقية ، أشهرها ما حدث في الأندلس على يد محاكم التفتيش التي لم توفّر حتى المخالف لها من أتباع الديانة النصرانية، ناهيك عن اليهود وغيرهم الذي وجدوا بعد ذلك الملاذ الآمن في البلاد الإسلامية الأخرى[94].

94 - المصدر السابق ص13،11،12.

الرحمة الشاملة

كان محمّد صلى الله عليه وسلم رحمة من الله للعالمين على اختلاف أديانهم وأعراقهم بل إن في تعاليمه ما يؤكد على الرحمة للطيور والحيوانات وعلى تحريم الإضرار بها دون حق والاعتداء عليها .

اتسعت رحمة نبي الإسلام محمّد صلى الله عليه وسلم لتشمل مع بني الإنسان: الطّير والحيوان، حيث أمر بالرّفق بها، وتوّعد من عذّبها أو أساء إليها حتى تموت بالعذاب والنار في الآخرة.

فقد نهى محمّد صلى الله عليه وسلم أن تجعل الطّيور وغيرها من ذوات الروح هدفاً للرّمي بالسّهام وغيرها من الأسلحة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم: « لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضًا».[رواه مسلم] أي: لا تتخذوا الحيوان الحي غرضا ترمون إليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها و لم تدعها تأكل من خشاش الأرض ». [رواه البخاري].

وقال صلى الله عليه وسلم: « بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فترعت موقها فسقته فغفر لها به».[رواه البخاري].

وقال صلى الله عليه وسلم: « بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فترل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي! فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب؛ فشكر الله له فغفر له » . قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال : « في كل كبد رطبة أجر». [رواه البخاري].

ونهى صلى الله عليه وسلم أن تصبر البهائم. قال العلماء: صبر البهائم: أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه.

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم

المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة ». [رواه أبو داود][95].

95 - حاجات البشرية في رسالة النبي محمد ص14،15.

تقدير جميع الأنبياء واحترامهم

قدّم محمّد صلى الله عليه وسلم صورة مشرقة من صور الاحترام والتقدير لجميع الأنبياء الـــذين سبقوه ومنهم إبراهيم وموسى وعيسى (عليهم الصلاة والسلام) ، بل أوحى الله إليه نصاً على أن من كذَّب أحداً منهم أو انتقصه فإنه ليس بمسلم فالأنبياء جميعاً إخوة يشتركون في دعـــوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

إنّ حديث النبي محمّد صلى الله عليه وسلم المحبّب عن إخوانه الأنبياء والمرسلين، كوصف أحدهم بـــ « العبد الصالح »، أو بـــ « أخي»، وبتوجيه أمّته إلى تعظيمهم وتوقيرهم، وبنهيه لهم عن تفضيله على أحد منهم؛ وقبل هذا كله: ما نجده من حديث مستفيض في القرآن الذي أوحاه الله إليه عن الأنبياء والرّسل، والثناء عليهم، وأمر النبي محمّد صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم يؤكد على معنى عظيم هو أخوة الأنبياء وعظم تقدير اللاحق للسابق واحترامه والثناء عليه، بل لقد جعل الله تعالى قصص الأنبياء السابقين البلسم الحاني لما كان يعانيه النبي محمّد صلى الله عليه وسلم في دعوته من أذى ونصب.

وهذه بعض النصوص التي جاءت مقررة للمعاني التي تقدمت:

قال الله تعالى: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين} [الأنعام :90].

وقال: {آمن الرسول بما أنزل إليه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [البقرة: 285].

وقد سُمّيت سورةٌ بكاملها باسم « الأنبياء» ، وبعد أن ذكر جملة طيبة منهم، وذكر ما امتازوا به من خصال وصفات عظيمة ختم قصصهم بقوله تعالى: {فاستجبنا له ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين} [الأنبياء:90].

وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا أوْلَى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء أخوة لعلّات: أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . [رواه البخاري].

وقال صلى الله عليه وسلم :«...فأقول كما قال العبد الصالح(أي: عيسى عليه السلام) وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إلى قوله: الحكيم ». [رواه البخاري].

وقال صلى الله عليه وسلم: «... فذكرت قول أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ». [رواه البخاري].

فهذا الموقف الإيجابي من أنبياء الله ورسله في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، بل إن النبي محمّداً صلى الله عليه وسلم قد أرشد المسلمين جميعاً من خلال وحي الله إليه أن من كذّب بأحد من أنبياء الله السابقين فإنه ليس بمسلم، وهذا هو النص القرآني الوارد في ذلك: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً }[النساء:150].

وفي المقابل نجد فيه وصفاً قبيحاً للذين قتلوا الأنبياء وطعنوا فيهم من اليهود، فسجّل القرآن العظيم موقفهم ذاك بقوله : {لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون} [المائدة :70].

وقوله : {ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [آل عمران:112][96].

96 - المصدر السابق من ص15-19.

حماية حقوق الإنسان

دافع محمّد صلى الله عليه وسلم عن حقوق الإنسان ذكراً كان أو أنثى صغيراً كان أو كبيراً وبغض النظر عن مكانته الاجتماعية أو مستواه المعيشي، وقرّر جملة من المبادئ السامية في هذا المجال ومن ذلك نصه في خطبة حجة الوداع التي توفي بعدها بأقل من ثلاثة أشهر على شدة تحريم الاعتداء على الدماء والأموال والأعراض وذلك قبل أن يعرف العالم قانون الشرط الكبير عام 1215م ووثيقة إعلان الحقوق عام 1628م وقانون تحرير الجسد عام 1679م وإعلان الاستقلال الأمريكي عام 1776م ووثيقة حقوق الإنسان والمواطن عام 1789م والإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948م .

لقد سبقت مبادئ الحقوق التي أقرّها شريعة الإسلام للإنسان كل المبادئ التي أُعلنت بعد ذلك بقرون، بل تعدّت حقوق الإنسان إلى حقوق الحيوان والنبات والبيئة التي جعل المحافظة عليها من شعب الإيمان ، فقال نبي الله محمّد صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». [رواه البخاري ومسلم]، كما نهى صلى الله عليه وسلم أن يقضي الإنسان حاجته في المكان الذي يستظل فيه الناس!!

ومن المبادئ العامة في هذا المجال:

المحافظة على النفس الإنسانية:

فجاء بعدة تشريعات وأوامر ونواهٍ، منها:

- تحريم قتل النّفس بغير حقّ، واعتبار قتل نفس واحدة كقتل جميع النّاس، قال الله تعالى: {من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منه بعد ذلك في الأرض لمسرفون} [المائدة:32].
- تحريم الانتحار: قال صلى الله عليه وسلم: «من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالداً مخلداً ومن تحسّى سمًّا فقتل نفسه فسمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنم». [رواه البخاري].

- سدّ الذرائع المؤدية إلى القتل و إزهاق الأنفس: قال صلى الله عليه وسلم: «من حمل علينا السّلاح فليس منَّا». [رواه البخاري ومسلم].
- تحريم الإخافة والترويع ولو مزاحاً.
- تحريم الأذى ولو المتوقع، كأمر من مرّ في سوق بنبل أن يكفه حتى لا يجرح أحداً ، قال صلى الله عليه وسلم : « من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بنبل فليأخذ على نصالها لا يعقر بكفه مسلم». [رواه البخاري].

والنصوص النبوية في تحريم الأذى والأمر بكفه كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم : «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه » . [رواه مسلم].

فجعل صلى الله عليه وسلم كفّ الأذى من حقوق الطريق التي يجب على المسلم احترامها.

الحفاظ على العقل:

فقد حرم كل ما يفسد العقل من:

- مفسدات حسية: كشرب المسكرات وتناول المخدرات؛ قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ مُسْكِرٍ خمر، وكُلُّ خمرٍ حرام». [رواه مسلم].
- مفسدات معنوية: كالاعتقاد في الخرافة و الشعوذة والتقليد الأعمى وعدم إعمال الفكر.

الحفاظ على النّسل:

- الترغيب في الزواج: قال صلى الله عليه وسلم:«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ». [رواه البخاري ومسلم].
- تحريم قتل الأولاد وإجهاض الحوامل: قال تعالى : {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً} [الإسراء :31]. فحرّم الإسلام قتل الأجنّة وتعمّد إسقاطهم دون أن يكون في بقاء الحمل خطر مؤكد على الأم.

الحفاظ على العرض:

- تحريم الزنا وإيجاب الحدّ عليه: قال تعالى: {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً}[الإسراء :32].

وقال تعالى: {الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما

رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين} [النور :2].

- تحريم القذف وإيجاب الحد عليه: قال تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم} [النور : 23].
وقال تعالى: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون} [النور:4].

وقال صلى الله عليه وسلم :«اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منها: «قذف المحصنات المؤمنات الغافلات».[رواه البخاري ومسلم].

- الحثّ على اتقاء مواضع التهم والريبة، سدّاً لذريعة الطعن في السلوك أو الخُلق.

الحفاظ على المال:

- الأمر بالتوسط في إنفاق المال، قال الله عزّ وجلّ: {ولا تجعل يدك مبسوطة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً } [الإسراء:29].
- تشريع العقوبات على التعدي على أموال الناس وممتلكاتهم.
- الأمر بالحفاظ على أموال اليتامى والضعفاء.
- تحريم الرّبا وأكل أموال الناس بالباطل.

تكريم المرأة :

- شدة وصية النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء، وقد ورد عنه أحاديث كثيرة في ذلك، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: «استوصوا بالنساء خيراً». [رواه البخاري]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي ». [رواه الترمذي].

- المرأة إنسان هي شقيقة الرجل: جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «النساء شقائق الرجال». [رواه أبو داود والترمذي].
- مشاركة النساء للرجال في الشعائر الدينية والأعمال الاجتماعية: قال الله تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون

الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم}[التوبة:71].

- حقوق النساء في التربية والتعليم: قد ثبت من عدة طرق أن إحدى الصحابيات المتعلمات علّمت حفصة بنت عمر (زوجة النبي صلى الله عليه وسلم) الكتابة . وقد أقرّها النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، مما يدلّ على ترغيبه في تعليم المرأة إذ أعطى القدوة العملية بأهل بيته.
- حقوق النساء المالية: فقد شرع الإسلام لهن الإرث كالرجال، وزادهنّ ما فرض لهنّ على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهنّ حقّ البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك[97].

97 - المرجع السابق ص20- 25.

الدعوة إلى الأخلاق الكريمة

رفع محمّد صلى الله عليه وسلم من شأن الأخلاق في حياة الإنسان فدعا إلى الأخلاق الكريمة وحماها مثل الصّدق والوفاء والعفاف، ودعا إلى توثيق الروابط الاجتماعية مثل برّ الوالدين وصلة الأقارب وطبّق ذلك عملياً، ونهى عن الأخلاق السّيئة وابتعد عنها وحذّر منها مثل الكذب والغدر والحسد والزّنا وعقوق الوالدين ، وعالج المشكلات الناتجة عنها.
مدح الله نبيه محمّداً صلى الله عليه وسلم في القرآن بقوله:{وإنك لعلى خلق عظيم} [القلم :4]. وقد لُقّب صلى الله عليه وسلم قبل بعثته بـ « الأمين » لما عُرف عنه من حفظ الأمانة وصيانتها، حتى إنه وهو يخرج مهاجراً من مكّة لم ينس أن يكلف علياً بن أبي طالب رضي الله عنه بأداء الأمانات التي كانت عنده لأصحابها، وقد يكون بعضهم من كفّار قريش الذين أخرجوه من أرضه !!

ولهذا أكثر النبي محمّد صلى الله عليه وسلم من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وحثّ على التحلي بها بما كان يسوقه من أحاديث في الوعد على الخُلق الحسن، بل لقد كانت بعض آيات القرآن الجامعة للأخلاق الفاضلة سبباً في إسلام بعض المكيين في عهده صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد في سيرته صلى الله عليه وسلم أنه قرأ قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والغي يعظكم لعلكم تذكرون} [النحل: 90] على رسولي أحد زعماء القبائل، فأتيا سيدهما فقالا: قد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن سيدهما قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن سيّئها.

ومن القواعد الأخلاقية التي وردت في القرآن الكريم:

قوله تعالى: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن :60].

وقوله تعالى : {وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون} [البقرة: 83].

وقوله تعالى: {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير}[البقرة: 237].

وقوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين(199) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم(200)} [الأعراف:199-200].

ومن القواعد الأخلاقية في السنة النبوية ما ورد من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تُعَدّ حلا لكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية التي يعاني منها الناس إذا ابتعدوا عن هديه صلى الله عليه وسلم الذي جاء به رحمة بالناس وتعليماً لهم، وإنجاءً لهم من الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، ومن ذلك:

قوله صلى الله عليه وسلم: « ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ». [رواه البخاري].

وقوله صلى الله عليه وسلم مراراً لمن استنصحه: «لا تغضب». [رواه البخاري].

وقوله صلى الله عليه وسلم: « من لا يشكر الناس لا يشكر الله ». [رواه الإمام أحمد وغيره].

وقوله صلى الله عليه وسلم: « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً ». [رواه البخاري ومسلم].

وقوله صلى الله عليه وسلم: « لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ». [رواه البخاري][98].

98 - المرجع السابق ص26،27،28.

الدعوة إلى التفكير واكتساب المعرفة

دعا محمّد صلى الله عليه وسلم - بوحي من الله تعالى - إلى إعمال العقل واكتشاف الكـــون واكتساب المعرفة وعدّ ذلك مما يُثاب عليه الإنسان في حين كان العلماء والمفكرون يعانون في حضارات أخرى من الاضطهاد والاتهام بالتجديف والهرطقة ، ويتم إرهابهم بالسجن والتعذيب وربما القتل.

لقد كانت أول آية نزلت على النبي محمّد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: {إقرأ باسم ربك الذي خلق} [العلق:1]، وكان مما أوحي إليه كذلك قوله تعالى : {أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب} [الزمر: 9]، وقوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير} [المجادلة:11].

وأبعد من هذا، فإن الكتاب الذي أوحي إلى النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم قد حوى إشارات علمية تعدّ من إعجازه؛ إذ لا يمكن أن يكون ما تحدّثت الآيات القرآنية عنه من حقائق علمية من قبيل تأليف النبي محمّد صلى الله عليه وسلم إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كما لم يكن في وقته من يعلم بتلك الحقائق، كوجود الماء العذب والماء المالح واختلاطهما دون امتزاج، وحديثه عن ضخامة النجوم، وعن ظلمات رحم المرأة... وغير هذا مما دوّنه علماء الإعجاز في القرآن وأيدهم عليه علماء غير مسلمين، وهو موجود مطبوع ومنشور في الكتب والأشرطة وغيرها..

وما حوته السنة كذلك من ذكر مراحل تكوّن الجنين في رحم أمّه، وغير ذلك من الحقائق التي أثبتها العلم الحديث..

فكيف يُظنّ برسول أوحى الله إليه بدين حوى هذه الحقائق أن يحارب العلم أو يحجر على العلماء، بل لم ينتشر العلم في العالم الإسلامي خلال حضارته التي امتدت لقرون إلا لأن دين النبي محمّد صلى الله عليه وسلم شجّع على ذلك وحثّ عليه، بل وأثّم الأمة بكاملها إذا قصّرت

في جانب من جوانب العلوم التي تحتاجها.

وفي مقابل هذا، وبعد قرون من بعثة النبي محمّد صلى الله عليه وسلم، نجد كثيرا من العلماء والمكتشفين في أوروبا يصدر عليهم حكم الإعدام والحرمان واتهامهم بمخالفة إرادة الربّ والكفر به بسبب تلك الاكتشافات والنظريات العلمية التي توصّلوا إليها، كما حدث لجاليلو وغيره، ولم يُعترف بتلك النظريات إلا بعد إزهاق كثير من الأرواح، وسجن العديد من المتحررين فكرياً، الأمر الذي لم يحدث بتاتاً في حضارة الإسلام التي بنى أسسها نبي الرحمة محمّد صلى الله عليه وسلم[99].

99 - حاجات البشرية في رسالة النبي محمد ص29،30،31.

التوازن بين حاجات الروح ومطالب الجسد

جاء محمّد صلى الله عليه وسلم- بوحي من الله - بدين موافق للفطرة البشرية الطبيعية يراعي حاجات الروح ومطالب الجسد ويوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، يُهذب غرائز الإنسان ونوازعه ولا يكبتها أو يلغيها كما حصل في حضارات أمم أخرى أغرقت في المثاليات المخالفة للفطرة البشرية وحرمت الراغبين في التعبد والتنسك من حقوقهم الفطرية كالزواج ، ومن ردّات فعلهم البشرية الطبيعية على الاعتداء فدعتهم إلى عدم الردّ على المعتدين؛ مما أدى إلى نفور الغالبية من أبناء تلك الحضارة عن تلك التعاليم وإيغالهم في عالم المادية المجردة التي تلبي مطالب الجسد وتترك الروح في وحشة كبيرة .

إن الذي أرسل محمّداً صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام هو الله خالق الناس أجمعين، العليم بما يصلح لهم، وما يوافق ما فطرهم عليه وما أودعه في تلك الفطرة من استعدادات وطاقات وحاجات، لا تستقيم تلك الفطرة إذا لم تشبعها، أو إذا أفرطت فيها، كما لا تستقيم إذا ووجهت بما يتصادم معها؛ وبانحراف تلك الفطرة وفسادها تفسد حياة الإنسان على هذه الأرض وتضطرب، فتظهر الأدواء النفسية والاجتماعية المستعصية، وهذا ما هو واقع في كثير من بقاع الأرض في المجتمعات التي فيها مخالفة للفطرة المستقيمة، كترك الزواج والاتجاه للرهبنة، وكالشذوذ الجنسي في العلاقات بين النساء بعضهن مع بعض، أو بين الرجال بعضهم مع بعض، وكترك عمارة الأرض والميل إلى الانعزال عن العالم، أو الانهماك التام في الماديات والإفراط في إشباع الرغبات الجسدية دون اهتمام بحاجات الروح ومتطلباتها... وغير ذلك من مظاهر الشذوذ عن الفطرة السليمة ومتطلباتها.

في حين يلحظ المتأمّل في تعاليم الدّين الإسلامي الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وسلم من عند الله عزّ وجلّ التّوازن فيها بين مختلف الجوانب في الحياة الإنسانية؛ بين مطالب الجسد المادّيّة من أكل وشرب وزواج وحقوق، وبين مطالبه الروحيّة من عبادة لله وتزكية للأخلاق، وبين مطالبه الفكرية والعقلية من حبّ للعلم والاطّلاع والاكتشاف.

فقد وازن الإسلام بين هذه المطالب كلّها في اتّساق لا طغيان فيه لجانب على جانب، بل أكّد

على ذلك بالنهي عن الغلوّ والإفراط، كما نهى عن التفريط والإهمال، وأمر بالتوسّط والاعتدال في جميع الأحوال، ولم تأت الشريعة إلا بتنظيم تحقيق تلك المطالب، وبيان حدودها التي لا تتصادم مع فطرة الإنسان ووظيفته التي خُلق من أجلها ألا وهي عبادة الله وعمارة الأرض بالنافع والصالح، فأباحت الشريعة كل شيء فيه منفعة راجحة للإنسان، ونهت عن كل شيء فيه مفسدة ومضرة على حياة الإنسان أو عقله أو ماله أو جسده.

وهذه بعض نصوص الوحي الذي نزل على محمّد صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} [الجاثية:13]، فلم يخلق الله تعالى هذا الكون ليبقى هملاً غير مستثمر، أو لينعزل عنه الخلق، والتعبير بـــ «سَخَّر» فيه معنى التذليل والتسهيل لاستكشاف هذا الكون والاستفادة من مكنوناته وكنوزه.

وقال الله تعالى: {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} [القصص:77].

وقال تعالى: {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار} [النور:37]. فهم مع تجارتهم لم يهملوا الجانب الروحي والتعبدي والخلقي الذي يدفع إليه الإشفاق من الحساب بين يدي الله في الآخرة، فلنتصوّر كيف يكون سلوك مثل هؤلاء التجار بمثل هذه العقيدة وهذه الأخلاق، ثم لنتصوّر كيف تكون الحياة فيه أناس كهؤلاء في مجالات أخرى من مجالات الحياة.

وقد أثبت التاريخ أن أمثال هؤلاء التجار المسلمين كانوا سبباً في دخول الإسلام إلى بلدان شاسعة المسافات، كأندونيسيا والسودان وغيرهما، دون أن تكون هناك جيوش فاتحة كما يزعم بعض الذين لم يقرأوا التاريخ جيداً.

وقال تعالى: {ثم قفينا على آثارهم بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه

رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون}   [الحديد:27].

وقد ضرب نبي الإسلام محمّد صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة العملية والتوجيهية في التوازن الروحي والمادي، حتى يصل إلى درجة الغضب الشديد ممن يخالف الفطرة البشرية وسنة الأنبياء والمرسلين، فقد بلغه — مرّةً — أن ناساً حلفوا - مبالغة في التعبدّ لله - بالامتناع عن النوم وعن الزواج وعن الأكل والشرب؛ فكان موقفه منهم حاسماً تحقيقاً لمنهج التوازن الذي بُعث به، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أُخبِروا، كأنهم تقالّوها (أي: عدّوها قليلة)! فقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني » . [رواه البخاري ومسلم].

كما رغّب في العمل والكدّ وجعل ذلك من أطيب ما يأكل منه الإنسان فقال صلى الله عليه وسلم: « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». [رواه البخاري][100].

100 - المرجع السابق ص32-36.

الأخوّة بين أجناس البشر

قدّم محمّد صلى الله عليه وسلم للبشرية النموذج المتكامل في الأخوّة بين بني البشر وأخبر أنه لا فضل لجنس بشري على جنس آخر فكلهم متساوون في أصل الخلقة والحقوق والواجبات ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بقدر إيمانه وخشيته لله تعالى، وأتاح الفرصة المتساوية بين أصـــحابه لخدمة الدين والانتماء إليه فكان منهم صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي جنباً إلى جنب مع إخوانهم من العرب.

عاش محمّد صلى الله عليه وسلم في مجتمع خيّمت عليه الطبقية المبنية على الفوارق الاجتماعية والمادية والإثنية والعرقية، و لم تكن هذه الأوضاع خاصة بجزيرة العرب، بل كان هذا حال العالم كله آنذاك، وبهذا ندرك النقلة العظيمة التي نقل إليها محمّدٌ صلى الله عليه وسلم العرب وغيرهم من سكان الأرض بما جاء به من تعاليم أوحيت إليه من ربه سبحانه وتعالى، حيث دعا إلى الأخوة والتساوي بين بني البشر، وحدّد أن ما يميّز إنساناً عن آخر هو ما يتمتع به من تقوى وأخلاق ونفع وعمل صالح، وأن الصورة الظاهرة واللون والعرق كلها لا أثر لها في التميّز أو التفاضل أبداً.

فقد كان شأن العرب أنهم يسترقون الأحرار بحد السّيوف في المعارك، أو بالحيلة والغدر في أحوال أخرى. وما كان أحد يتحدث عن الرقيق إلا باعتبارهم متاعًا يحق لسيده فيه التصرف كما يحلو له، حتى إن أراد أن يزهق روحه لم يلمه في ذلك لائم، أو يعتب عليه عاقل، تكره الإماء على ممارسة البغاء؛ ليحصل سادتها الأجور، ويساق العبيد إلى العمل الشاق كما تساق البهائم والشاء، والأعجب من هذا كله ألا يسمع بين الرقيق صوت لمعارض أو ممانع!! كيف وهم يعلمون أنها قوانين الحياة وطبيعتها!

فكانت النقلة التي جاء بها محمّد صلى الله عليه وسلم في ذلك المجتمع حيث أعلن – بوحي الله تعالى – أنه لا اعتبار لتلك الفوارق المتعارف عليها في ذلك المجتمع، وأعلن ذلك على الملأ و لم يتوان في ذلك.

ومن وحي الله له في ذلك :

قول الله تعالى: {يا أيهال الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم}[الحجرات: 13].

وبيّن أصل خلقة الإنسان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، من ذلك:

قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} [المؤمنون:12]، وقوله تعالى: {هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمىً عنده ثم أنتم تمترون}[الأنعام:2].

وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ». [رواه الإمام أحمد].

وقال صلى الله عليه وسلم: « الناس بنو آدم، وآدم من تراب ». {رواه الترمذي][101].

وختاماً: فكل نقطة من هذه النقاط العشر السابقة قابلة للبسط والتفصيل وذكر الشواهد التي تؤكد ما جاء فيها أكثر مما يحتمله هذا الكتاب، كما أن هناك الكثير مما قدمه محمّد صلى الله عليه وسلم للبشرية - بوحي من الله عز وجل – قد تكلّم عنه منصفون من الشرق والغرب بعدما درسوا سيرة هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم ، فجاءت شهادتهم مبنية على العلم والبحث المتجرّد، وهذه هي طبيعة البحث العلمي الموضوعي التي توصل إلى النتائج الحقيقية دون زيادة أو نقصان.

وسيأتي ذكر هذه الشهادات القيّمة في الفصل القادم – إن شاء الله –

101 - حاجة البشرية في رسالة النبي محمد ص 36-40.

الفصل الخامس

محمد في الفكر الغربي الحديث

إن المتأمل لما كتب عبر محطات التاريخ الإنساني عن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم يدرك أنه لم تحظَ شخصية في التاريخ البشري العريض بمثل ما حظيت به شخصية النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام من الاهتمام والإشادة والتمجيد من كافة الأعراق والشعوب والطوائف والملل، وفي شتى اللغات. وبالرغم من وجود من حاولوا الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والتشكيك في رسالته، والاستهزاء به[102] بسبب الحقد على الإسلام وإطباق الجهل بالإسلام على أصحابها والبعد عن الموضوعية العلمية في البحث والتدقيق؛ فإن التيار العام ظل يسير في ناحية التقدير الحقيقي لشخصية محمد صلى الله عليه وسلم في تاريخ البشرية، وفضل رسالته على الإنسانية، بشكل يتوخى الإنصاف والموضوعية بعيداً عن أحقاد القرون الوسطى[103].

وباطلاعنا على ما قيل في النبي صلى الله عليه وسلم من طرف المفكرين والمستشرقين والفلاسفة الغربيين المنصفين نجد أن هؤلاء يمثلون كبار مفكري الغرب وأعمدة الفكر والفلسفة فيه، وقد حاولوا الوقوف على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم، منبهرين بشخصيته العظيمة ونبل أخلاقه وطهارة حياته وخلوها من كل ما يثلم أخلاقه القرآنية، والبعض منهم اكتفى بوضع شخصية نبي الإسلام في إطارها الحقيقي الذي يعرفه المسلمون أجمع، دون أن يلمس الإسلام ودعوته شغاف قلوبهم، والبعض الآخر ممن ظلوا بعيدين عن الإسلام تعرضوا للشخصية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم كواحد من الأبطال والعباقرة الذين أثروا في مسيرة التاريخ، لكن فئة

---

102 – من أمثال القس تيري جونز وأقباط المهجر والفيلم المسيء له صلى الله عليه وسلم.

103– محمد في الفكر الغربي الحديث: إدريس الكنبوري، مجلة العربية، العدد 431، ذوالحجة 1433 هـ ، نوفمبر 2012م.

من هؤلاء كان اطلاعهم على خصائص شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وفضائلها مدخلاً للبحث عن الإسلام، ومن ثم إلى إعلان إسلامهم علناً على الملأ[104].

عظمة النبي صلى الله عليه وسلم في عيون الغربيين

فهذا المؤرخ الأوروبي(جيمس ميتشنر) يقول في مقال تحت عنوان(الشخصية الخارقة) عن النبي صلى الله عليه وسلم:"... وقد أحدث محمد عليه الصلاة والسلام بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في الجزيرة العربية، وفي الشرق كله، فقد حطم الأصنام بيده، وأقام ديناً خالداً يدعو إلى الإيمان بالله وحده".

ويقول الفيلسوف الفرنسي(كارديفو): " إن محمداً كان هو النبي الملهم والمؤمن، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العالية التي كان عليها، إن شعور المساواه والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يطبق عملياً حتى على النبي نفسه".

أما الروائي الروسي والفيلسوف الكبير(تولستوي) الذي أعجب بالإسلام وتعاليمه في الزهد والتصوف والأخلاق، فقد انبهر بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وظهر ذلك واضحاً على أعماله، فيقول في مقالة له بعنوان(من هو محمد؟): " إن محمداً هو مؤسس ورسول، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام. وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية. وهو عمل عظيم لا يقدر عليه إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال"[105].

104 - المرجع السابق.

105 - المرجع السابق.

كارلايل يرد على النصارى والملحدين

ومن هؤلاء الفيلسوف الإنجليزي الشهير(توماس كارلايل)[1795-1881م] فقد خصص في كتابه(الأبطال وعبادة البطولة) فصلاً لنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم بعنوان(البطل في صورة رسول: محمد- الإسلام)، عد فيه النبي صلى الله عليه وسلم واحداً من العظماء السبعة الذين أنجبهم التاريخ.

وقد ردَّ كارلايل مزاعم المتعصبين حول النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

" يزعم المتعصبون من النصارى والملحدين أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان.. كلا وايم الله! لقد كانت في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن القفار والفلوات[106]، المتورد المقلتين[107]، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحِجى وإربة ونُهى؛ أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. كيف لا وتلك نفس صامتة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين". وبعد أن يتعرض بالتحليل والتفسير لعظمة نبي الإسلام ونبوته وتعاليمه السامية، يقول:

" وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع"[108].

---

106 - القَفْرُ: مفازة لا نبات فيها ولا ماء، والجمع قِفَار، مختار الصحاح ص297.

- الفَلَاتُ: المفَازة، والجمع الفَلا والفَلَواتُ، مختار الصحاح ص279.

107 - المتورد المقلتين: المُقْلَةُ شحمة العين الذي تجمع البياض والسواد، والمتورد من الورد وهو الزهرة المعروفه، مختار الصحاح ص339.

108 - محمد في الفكر الغربي الحديث: إدريس الكنبوري، مجلة العربية، العدد 431، ذوالحجة 1433 هـــ ، نوفمبر 2012م.

النبي المحرر

ولقد وقف الكثير من المفكرين والمستشرقين والفلاسفة الغربيين عند جوهر رسالة الإسلام الخالدة التي جاءت لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان، وتحرير البشرية جمعاء من الشرك والفوضى والعنف والتوحش الذي كان سائداً قبل مجيء الإسلام، ومن ثم نظروا إلى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم كرسالة للبشرية بأسرها، لأنها رسالة للتحرر والانعتاق وتكسير قيود الظلم والهوان.

من هؤلاء المستشرقين الأمريكي (إدوارد رمسي) الذي قال:

" جاء محمد للعالم برسالة الواحد القهار، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبزغ فجر جديد كان يرى في الأفق، وفي اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد ما فقد من العدل والحرية أتى الوحي من عند الله إلى رسول كريم، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة، فانتبه العرب، وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان العبودية".

ويقول الفيلسوف والشاعر الفرنسي لامارتين:

" إن ثبات محمد وبقاءه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته في وسط أعدائه في قلب مكة ونواحيها، ومجامع أهلها، وإن شهامته وجرأته وصبره فيما لقيه من عبدة الأوثان، وإن حميته في نشر رسالته، وإن حروبه التي كان جيشه فيها أقل من جيش عدوه، وإن تطلعه في إعلاء الكلمة، وتأسيس العقيدة الصحيحة لا إلى فتح الدول وإنشاء الإمبراطورية؛ كل ذلك أدلة على أن محمداً كان وراءه يقين في قلبه وعقيدة صادقة تحرر الإنسانية من الظلم والهوان، وإن هذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة حطمت آلهة كاذبة، ونكست معبودات باطلة، وفتحت طريقاً جديداً للفكر في أحوال الناس، ومهدت سبيلاً

للنظر في شؤونهم. فهو فاتح أقطار الفكر، ورائد الإنسان إلى العقل، وناشر العقائد المحررة للإنسان ومؤسس دين لا وثنية فيه"[109].

وقضية الفتوحات

لقد شاع في الفكر الغربي ولدى المتأثرين بتعاليم الكنيسة النصرانية ورواسب الأفكار الشعبية المنحرفة التي روجتها أوروبا عن الإسلام ونبيه وعن المسلمين إبان وبعد الحروب الصليبية؛ أن الفتوحات الإسلامية قامت على السيف والقهر والتسلط والقسر، ولم تقم على الكلمة الطيبة والدعوة الرفيقة والعقيدة الواضحة، لكن فئة عادلة من مفكري الغرب لم يقتنعوا بهذه الإشاعات ورحلوا يتأملون في تلك القدرة العجيبة للمسلمين على نشر دينهم بتلك السرعة المدهشة، وذلك الزحف للدخول الكبير للناس أفواجاً في دين الله، فعادوا إلى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ليجدوا أنها تقوم على الدعوة اللينة لا على القسر الخشن.

فالمفكر(لورد هدلي) يقف مندهشاً عند معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للأسرى من المشركين في معركة بدر الكبرى، ملاحظاً فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل:

" أفلا يدل هذا على أن محمداً لم يكن متصفاً بالقسوة ولا متعطشاً للدماء؟ كما يقول خصومه، بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء جهد المستطاع، وقد خضعت له جزيرة العرب من أقصاها، وجاءه وفد نجران اليمنيون بقيادة البطريق، ولم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام، فلا إكراه في الدين، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم، وأمر بألا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية".

ويقول الفيلسوف الفرنسي(وولتر):

---

109 - محمد في الفكر الغربي الحديث: إدريس الكنبوري، مجلة العربية، العدد 431، ذوالحجة 1433 هـ ، نوفمبر 2012م.

" إن السنن التي أتى بها محمد كانت كلها قاهرة للنفس ومهذبة لها، وجمالها جلب للدين المحمدي غاية الإعجاب ومنتهى الإجلال، ولهذا أسلمت شعوب عديدة من أمم الأرض، حتى زنوج أواسط أفريقيا، وسكان جزر المحيط الهندي".

أما العالم الأمريكي(مايكل هارت) فهو يردّ نجاح النبي صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته، وسرعة انتشار الإسلام في الأرض؛ إلى سماحة هذا الدين وعظمة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم. وقد اختاره هارت على رأس مائة شخصية من الشخصيات التي تركت بصماتها بارزة في تاريخ البشرية. ويقول:

" إن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح مطلقاً في المجالين الديني والدنيوي، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً"[110].

110 - محمد في الفكر الغربي الحديث: إدريس الكنبوري، مجلة العربية، العدد 431، ذوالحجة 1433 هـ ، نوفمبر 2012م.

الفضل على الإنسانية والعالم

من الحقائق المسلم بها أن الإسلام جاء ديناً للعالمين، لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق ومن الجور إلى العدل ومن الفجور إلى التقوى، وكان له الفضل الكبير على الفلسفات والأفكار والقوانين زالشرائع الأرضية التس استمدت منه روح العدل والمساواة والتسامح والاعتدال والحرية والأخوة الإنسانية.

وقد أقر العديد من فلاسفة الغرب بهذه الحقيقة في وقت مارى فيها آخرون وأشاعوا ترهات غير منطقية وغير موضوعية عن الإسلام، ونسبوا ما جاء به من تعاليم وتشريعات إلى نواميس سابقة عليه، وإلى القانون الوضعي الروماني، وهي ترهات كفى الغربيون المنصفون المسلمين مهمة الرد عليها بأسس علمية. كما أثبت الباحثون المسلمون عوارها وتساقطها وإغراضها.

يقول الفيلسوف والكاتب الإنجليزي المعروف(برنارد شو):

" إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وبدأت تعيش دينه، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمها بها من أراجيف رجال أوروبا الوسطى"، ويضيف قائلاً:

" ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول: إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة، وإني أعتقد رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم، لتم له النجاح في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة".

ويفند المؤرخ الأوروبي روبرت بريغال مزاعم الغربيين عن تأثر الإسلام بالتشريعات اليونانية الرومانية، فيقول:

" إن النور الذي أشعلت منه الحضارة في عالمنا الغربي لم تشرق جذوته من الثقافة اليونانية الرومانية التي استخفت بين خرائب أوروبا، ولا من البحر الميت على البوسفور(يعني بيزنطه)، وإنما بزغ من المسلمين، ولم تكن إيطاليا مهد الحياة في أوروبا الجديدة، بل الأندلس الإسلامية"،

إلى أن يقول: " إن هذه الحقيقة التاريخية لا يمكن للغرب إنكارها مهما أوغل في التعصب، واستخف به العناد. إن دَين أوروبا لمحمد رسول الإسلام غريب ألا يجد محل الصدارة في نسق التاريخ المسيحي".

أما وليام موير المؤرخ الإنجليزي فيقول في كتابه(حاة محمد):

" لقد امتاز محمد عليه السلام بوضوح في كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد ".

هذه مقتطفات من مواقف فلاسفة ومستشرقين أوربيين وغربيين في حق المصطفى صلى الله عليه وسلم النبي الخاتم، أردنا منها إثبات أن أبناء الحضارة الغربية يقرون بدور الإسلام في بنائها وتشييد صروحها، وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته الحميدة وفضله المتصل إلى يوم القيامة على البشرية في جميع أقطار المعمورة، ذلك أن التعصب الأوروبي المسيحي لم يكن خطاً صاعداً باستمرار، وإنما وجد هناك منصفون أكدوا الحقيقة بلا لف أو دوران. ولكن الثقافة الغربية السائدة والمتشبعة بقيم التعصب والعناد والتمركز الحضاري حول الذات سعت إلى حجب هذه الحقائق وإخفاء هذه الأصوات حتى لا يتمكن الشخص الأوروبي من الاطلاع على ما أثبته أبناء جلده من الكبار في حق الإسلام ونبيه ورسالته العالمية الخالدة، وذلك كله بهدف تحقيق غرضين، الأول إبعاد الأوربيين المسيحيين عن الإسلام الذي دل على قدرته على التغلغل في النفوس وملامسة صوت الفطرة في الإنسان، فهو يخيف الغرب المتوجس من تراجع عدد معتنقي المسيحية في العالم، رغم ما ينفقه من الأموال والوقت لتنصير الشعوب، والغرض الثاني ضمان استمرار الصراع بين الغرب والإسلام والقطيعة بينهما لمصلحة الصهيونية والماسونية التي تعتبر نفسها المتضرر الأول والرئيس من أي تقارب أو حوار بين الإسلام والغرب. وصدق الله العظيم إذ يقول:{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف

بربك أنه على كل شيء شهيد(53) ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط(54)} [فصلت][111].

111 - محمد في الفكر الغربي الحديث: إدريس الكنبوري، مجلة العربية، العدد 431، ذوالحجة 1433 هـ ، نوفمبر 2012م.

الفصل الخامس

رسالة إلى ورثة الأنبياء وصناع الحياة

وفي نهاية الكتاب أقدم رسالة إلى ورثة الأنبياء وصناع الحياة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: " فضل العالم على العابد كفضل ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر "[112].

إن علماء الأمة ودعاتها لها دور كبير في نشر تعاليم الإسلام، وإظهار أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه النبوية، وذلك عن طريق العديد من الطرق والوسائل وأهمها:

ما يجب أن يكون عليه الداعي إلى الله:

الدعاة إلى الله طراز فوق مستوى العامة، والنوافل في حقهم ترتفع إلى درجة الواجبات. أيها الداعية القدوة أنت بصدد أمة بل بصدد إنسانية تعيش في محيط آسن خانق مهمتك أن تنقلها إلى المحيط العذب الفسيح ومن محيط المادية إلى محيط الربانية، مهمتك أن تقيم معالم الحياة الفاضلة، وتحقق معاني الأخوة في الله والنصيحة في سبيل الحق والثورة على مظاهر الباطل أينما وجد، ووسيلتك في ذلك أرزاق السماء يفيضها الله على القلوب لا على المعدات والجيوب، فعليك أيها الداعي أن ترفع بصرك من مزود الأرض إلى مائدة السماء لتحقق الروحانية الاجتماعية التي تحيا بها حياتين وتعيش بها في عالمين؛ جسمك في الأرض وحقيقتك في السماء، جوارحك آخذة فيما يأخذ أهل الدنيا ومواهبك الإلهية آخذة فيما يأخذ منه العارفون، تغدو وتروح بين الناس ولك من دون ذلك غدو ورواح في الملأ الأعلى.

ورسول الله هو قدوتك، كان شديد الإحساس بمعنى العبودية، لا يغيب عنه أنه عبد لله، يعمل فوق أرضه وتحت سمائه، يرى التقصير فيه هلاكاً فيفزع ويبكي ويقول: " بعثني الله على مثل

---

112 - رواه أحمد فى العلل وهو حديث حسن بطرقه كما قال المزى .

حد السيف إن زغت عنه هلكت"[113]، ويدعو: " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك"[114].

سيرة الرسول هي المثل الأعلى:

فليفكر الدعاة في أحوال وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه، رأى أن الخالق مالك الملك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه حكيماً لا يصنع شيئاً عبثاً، فسلم تسليم مملوك لحكيم، فكانت العجائب تجري عليه، ولا يوجد منه تغير، ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال: لو كان كذا، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبال لعواصف الريح.

هذا سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، بعث إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق فجعل يخرج في كل موسم ويقول: "من يؤويني. من ينصرني"[115]. ثم خرج من مكة إلى الطائف فعاد وقد دمي كعبه، ولم يدخل إلا في جوار كافر.

ولم يجد صلى الله عليه وسلم من الطبع تأفف، ولا من الباطن اعتراض، فليتمثل الدعاة بهدي نبيهم، وليقتدوا به في أخلاقه وسلوكياته[116].

---

113 - انظر: الدر المنثور271/5، نقلاً عن خواطر الفجر ص163،164.

114 - أخرجه الطبراني في الأوسط(3565)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد180/10 وفيه سلمة بن حرب مجهول.

115 - رواه أحمد في المسند322/3، 339، من حديث جابر بن عبدالله، وصححه الحاكم في المستدرك624/2 ووافقه الذهبي.

116 - محمد أبوالسعود: خواطر الفجر ص375.

وسائل عملية لنصرة خير البرية

1- بيان خصائص دعوته ورسالته صلى الله عليه وسلم وأنه بعث بالحنيفية السمحة وأن الأصل في دعوته هو حرصه على هداية الناس كافة إلى إفراد العبادة لرب الناس.

2- العمل على دعوة الناس وهدايتهم إلى هذا الدين؛ بجميع أجناسهم وقبائلهم.

3- بيان صفاته صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلقية قبل وبعد الرسالة.

4- بيان فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم وخصائص أمته بأسلوب ممتع.

5- بيان مواقفه صلى الله عليه وسلم مع أهله وجيرانه وأصحابة رضوان الله عليهم.

6- بيان كيفية تعامله صلى الله عليه وسلم مع أعدائه من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين.

7- بيان منهجه صلى الله عليه وسلم في حياته اليومية.

8- تخصيص الخطبة الثانية لبعض الجمع للتذكير بمشاهد من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فضلاً عن تخصيص خطب كاملة عنه من وقت إلى آخر.

9- التعليق على الآيات التي تتكلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم عند قراءتها في الصلاة ولمدة ثلاث إلى خمس دقائق.

10- إضافة حلقات لتحفيظ السنة النبوية إلى جوار حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المساجد.

11- تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى عامة الناس حول سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى التمسك بما صح عنه صلى الله عليه وسلم بأسلوب بسيط واضح.

12- ذكر فتاوى علماء الأمة التي تبين حكم من تعرض لرسول الأمة صلى الله عليه وسلم بشيء من الانتقاص ووجوب بغض من فعل ذلك والبراءة منه

13- العمل على رد الناس إلى دينهم من خلال عرض مبسط لمواقف الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوية.

14- التحذير في الوسائل المرئية والمسموعة والمقروءة من الغلو فيه صلى الله عليه وسلم ، وبيان الآيات التي تنهي عن الغلو كقوله { لا تغلو في دينكم } [المائدة:77].

15- والأحاديث الخاصة في ذلك كما في قوله صلى الله عليه وسلم " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم " [رواه البخاري]، وبيان أن المحبة الصادقة هي في اتباعه صلى الله عليه وسلم .

16- حث الناس على قراءة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مصادرها الأصلية وتبيين ذلك لهم.

17- دحض وتفنيد الشبهات والأباطيل التي تثار حول الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته[117].

117 - نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم على مستوى الأئمة والدعاة وطلبة العلم موقع نبي الرحمة.

برنامج عملي لنصرة النبي -صلى الله عليه وسلم-

(من المسجد)

ردًّا على الإساءات الكثيرة لنبيِّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ينبغي للمسلم أن يَزُودَ ويدافع عن نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- ونجد الكثير يسأل: كيف يكون لي ذلك؟!

إن الوسائل كثيرة ومتنوعة، ولكني اليومَ -بمشيئة الله تعالى- أتحدَّث خصيصَى عن المسجد ودوره في نُصرة النبي -صلى الله عليه وسلم- والسؤال: كيف يكون المسجد داعمًا قويًّا ومدافعًا عن رسول الإنسانية محمد -صلى الله عليه وسلم-؟!

الوسيلة الأولى: التهيئة:

ينبغي للإمام أن يُهيِئ الناس للموضوع بشكلٍ تربوي يَمتاز بالوسطية، فلا إفراط ولا تفريطَ، وهذا يجعل الخطيب يَختار أعذبَ الألفاظ، ويتبنَّى أفضل الكلمات للتعبير عن حبِّ النبي -صلى الله عليه وسلم- فنحن لا نريد جمهور الموقف، ولكنا نريد جمهورًا محبًّا لنبيِّه -صلى الله عليه وسلم- مُتبعًا لسُنته في حياته كلها.

الوسيلة الثانية: البرنامج المسجدي:

ماذا لو تبنَّى الإمام مشروعًا نبويًّا في مسجده؟ ولكن كيف يكون ذلك؟!

أن يقوم الإمام بتخصيص أسبوع لنُصرة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويكون برنامجه كالآتي:

- تعريف الناس بالمشروع، ويكون ذلك في خُطبة الجمعة؛ حيث يكون اجتماع الناس.
- عمل جدول للمشروع، ويكون ذلك عن طريق:

أ- محاضرات للإمام يُلخص فيها سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ب- الاستعانة بالعلماء والحديث عن جوانب العظَمة في حياته -صلى الله عليه وسلم-.

ج- عمل معرض ومسابقة للأطفال (في حبِّ النبي -صلى الله عليه وسلم-).

د- عرض بالداتا شو يتضمَّن أناشيدَ وحلقاتٍ للحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هـ- سلسلة التعاليم والآداب النبوية، ويتم فيها تعليم الجمهور آدابَ وسُنن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

و- وِرَش عمل (كيفيَّة التحلي بأخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم-).

ز- دورات أُسرية وتربوية (النبي زوجًا - النبي أبًا - النبي معلِّمًا.... إلخ).

ح- الملصقات، وتتضمَّن: (أحاديث وآدابًا نبويَّة - وصايا عملية).

الوسيلة الثالثة: مشروع نُصرة النبي -صلى الله عليه وسلم- (خارج المسجد):

- القوافل الدعوية لإمام المسجد ورُوَّاده، وزيارة الأماكن العامة، والحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- عمل لافتة لدعوة الناس لنُصرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- تبنِّي مشروع لحي المسجد، وتطبيق نَهْج النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كفالة يتيم - مشروع نظافة - قافلة طبية).

- إحياء مشروع (الوصية بالجار)؛ ((ما زال جبريل يُوصيني بالجار؛ حتى ظننتُ أنه سيُورِّثه)).

هذه بعض الوسائل لتفعيل دور المسجد في نصرة النبي -صلى الله عليه وسلم- في مساجدنا، فلا ينبغي لدور للمسجد أن يختفي في هذه الظروف، فإن لم يكن المسجد المُلتقى، فأين هو؟![118]

118 - حسام العيسوي: برنامج عملي لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم (من المسجد)، موقع الألوكة1433/11/8 هـ، 2012/9/24م.

المراجع والمصادر

كتب التراث

1- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، طبعة دار الحديث(1429 هـ- 2008م)، القاهرة، مصر.
2- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، الطبعة الأولى(1405 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
3- السيرة النبوية، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الطبعة الثانية،(1398 هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
4- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم السهيلي، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة(1387 هـ).
5- حلية الأولياء، أبونعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، مطبعة السعادة، مصر،(1351 هـ-1375م).
6- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، (1411 هـ- 1991م).
7- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.
8- شرح المعلقات للحسين الزوزني، تحقيق يوسف علي بدوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، (1410 هـ- 1989م).
9- البداية والنهاية، أبو الفداء بن كثير الدمشقي.

الكتب الحديثة

1- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.
2- تنقيحات، أبو الأعلى المودودي.
3- السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.
4- خطب الشيخ محمد الغزالي في شئون الدين والحياة، محمد الغزالي، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

5-الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، محمد الغزالي، الطبعة العاشرة (2010م)، نهضة مصر، القاهرة ، مصر.

6-فقه السيرة، محمد الغزالي، الطبعة السابعة(1428 هــ-2007م)، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر.

7-في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة السادسة والثلاثون (1428 هــ-2007م)، دار الشروق، القاهرة، مصر.

8-الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، الطبعة السادسة عشر(1428 هــ-2007م)، مكتبة وهبة، مصر.

9-واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثالثة(1410 هــ- 1989م)، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جدة، المملكة العربية السعودية.

10- السيرة النبوية، علي محمد محمد الصلابي، مكتبة فياض(1428 هــ- 2007م)، مكتبة فياض، المنصورة، مصر.

11- ماذا قدم المسلمون للعالم، راغب السرجاني، الطبعة الأولى(1430 هــ-2009م)، مؤسسة إقرأ، القاهرة، مصر.

12- حاجات الشرية في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سلسلة رحمة للعالمين (1)، البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم.

13- موسوعة الحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، 1993م.

14- مقارنة الأديان، أحمد شلبي، دار النهضة المصرية- القاهرة، 1999م.

15- تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، أبو زيد شلبي، الطبعة الحادية عشرة(1425 هــ -2004م)، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.

16- روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طيارة، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.

17- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، الطبعة الثانية(1417 هــ - 1996م)، دار القلم، دمشق، سوريا.

18- خواطر الفجر، محمد أبو السعود، الطبعة الأولى(1424 هــ- 2004م)، شروق للتجارة والتوزيع، المنصورة، مصر.

19- ظاهرة الإرجاء، سفر الحوالي، الطبعة الأولى(1417 هـ)، مكتبة الطيب، القاهرة، مصر.
20- الغرباء الأولون، سلمان العودة، الطبعة الثالثة(1412 هـ- 1991م)، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية.

الكتب المترجمة

1- محمد رسول الله، أتيين دينيه.
2- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب (2001م)، القاهرة، مصر.
3- إيران في عصر الساسانيين، أرثر كريستنس.
4- فتح العرب لمصر، تعريب محمد أبو حديد.

المقالات

1- مقال التثليث، دائرة المعارف الكاثوليكية.
2- مؤتمر الحج الأكبر، محمد عمارة، مجلة الأزهر، الجزء"12" لسنة"85"، ذو الحجة 1433 هـ- نوفمبر 2012م.
3- محمد في الفكر الغربي الحديث، إدريس الكنبوري، مجلة العربية، العدد 431، ذو الحجة 1433 هـ- نوفمبر 2012م.

المواقع الإلكترونية

1- الحقوق السياسية للمرأة في ظل الشريعة الإسلامية، حسام العيسوي إبراهيم، موقع الألوكة (12/21/ 1431 هـ - 2010/11/28م)، على الرابط: http://www.alukah.net/Library/0/27784/
2- حاجة العالم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، محمد بديع، رسالة الأسبوع للمرشد العام للإخوان المسلمين، موقع إخوان أون لاين (2012/9/27م)، على الرابط:

http://www.ikhwanonline.com/new/Article.aspx?SecID.213&ArtID.122971

3-أسباب تخلف المسلمين، ناصر بن سليمان العمر، موقع جامعة أم القرى(2012م)، على الرابط:

http://uqu.edu.sa/page/ar/59231

4-نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم على مستوى الأئمة والدعاة وطلبة العلم، موقع نبي الرحمة، على الرابط:

http://www.mercyprophet.org/mul/ar/node/2245

5-برنامج عملي لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، حسام العيسوي إبراهيم، موقع الألوكة(1433/11/8 هـ - 2012/9/24م)، على الرابط:

/http://www.alukah.net/Spotlight/0/44564

المراجع الأجنبية

THE HISTORY OF DECLIN AND FALL OF ROMAN EMPIRE V.Y.P.13

الفهرس